الدكتور محمد منير سعد الدين

العيش المشترك الإسلامي المسيحي في ظل الدولة الإسلامية

شهادة من التاريخ

المسيحيّة والإسلام في الحوار والتعاون

سلسلة أسّسها ويشرف عليها

عادل تيودور خوري

وينشرها

مركز الأبحاث في الحوار المسيحيّ الإسلاميّ

C.E.R.D.I.C.

حريصا - لبنان

١٥

الدكتور محمّد منير سعد الدين

العيش المشترك الإسلاميّ المسيحيّ في ظلّ الدولة الإسلاميّة شهادة من التاريخ

المكتبة البولسيّة (جونية - لبنان)، ٢٠٠١، ١٨٤ ص.

العيش المشترك الإسلامي المسيحي في ظل الدولة الإسلامية

شهادة من التاريخ

بقلم
الدكتور محمد منير سعد الدين

المكتبة البولسية
جونيه - لبنان
٢٠٠١

المكتبة البولسيّة: جونية - لبنان، ص.ب. ١٢٥

هاتف: ٩١١٥٦١-٩ (٩٦١)

فاكس: ٩١٨٤٤٧-٩ (٩٦١)

مدخل

العيش المشترك الإسلاميّ والمسيحيّ

تتعالى أصوات عديدة في مجتمعنا منادية بالحوار، والعيش المشترك، وتجديد التعايش، والحياة المشتركة، كلها مصطلحات تتردد على الألسن، ومطلوب أن تدخل القلوب لتكون ممارسة على أرض الواقع.

لقد أقلمت على الخوض في الحديث عن العيش المشترك الإسلاميّ والمسيحيّ، انطلاقاً من دافع نفسي وقناعة ثابتة حيث أجد نفسي من المؤمنين بالعيش المشترك، والعاملين لأجل تحقيقه، وأشعر بضرورته في مجتمع تعددي كمجتمعنا، وأدرك أنه إذا التغى العيش المشترك لم يعد هناك سلام بين الإنسان ونفسه قبل كل شيء، وأيضاً حين نرفض العيش المشترك فما هو البديل؟ أليس هو الاقتتال والصراع ثم الضعف ثم الفناء، وهذا ما رأيناه نتاج الحرب الأهليّة في لبنان؟

ويبدو لي أن الجميع مسلمون ومسيحيون يسعون إلى إقامة بناء مشترك، يرتكز على المعرفة والتعاون، اللذين يوصلان إلى حياة مشتركة هادئة، وإلى حوار حياة وأعمال، إنه انفتاح وتقارب بين المسلم والمسيحي، انطلاقاً من قوله سبحانه وتعالى (يا أيّها الناس إن خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)[1]، فالتعاون والتفاضل بين البشر يقوم على التعاون على البر والتقوى.

فالإسلام من خلال هذه الآية الكريمة "عمليًا يعترف بالآخر، ويقر له

---

[1] سورة الحجرات ٤٩: آية ١٣

بشروط متساوية في الخلق ومنذ النشأة، دون أن يحدد هوية الآخر أو نمط تفكيره أو انتماءه. بل إنه لا يحدد معيارًا للتقويم والخطأ والصواب، وحتى الحساب والثواب والعقاب، إلاّ بمدى إلتزام الفرد والجماعة بمنهج قياسي واحد يمكن أن ينطبق على الجميع بشكل متساو، ألا وهو التقوى. بمعنى آخر بنتائج سلوكيات الإنسان وحصيلة أعماله وآثار فعله وتداعياته وانفعالاته، ومدى مواءمتها لمجموعة السنن الكونية العامة أيّا كانت أصول ذلك الإنسان وجذوره أو انتماءاته ومعتقداته التي تربى عليها.

وصـــدق رســـول الله محمّد الأمين صلى الله عليه وسلم حامل كتاب الوحـــي وناقل الرسالة الخاتمة إلى البشر أجمعين، عندما قال في هذا السياق أيضًا (الناس سواسية كأسنان المشط الواحد).

حيث يظهر مرة أخرى كم هي مفتوحة معايير التقويم والتصنيف للنشر على احتمالات الفعل والعمل الإنساني ونتائجه وتداعياته في كل مرحلة، وحسب الظروف، وإن القاعدة الوحيدة للتقويم تبقى هي مدى وحجم التقوى التي ترافق ذلـــك العمـــل، وإنه لا شرط مسبقًا يضع إنسانًا بعينه متقدمًا على إنسان آخر نتيجة لنسبه أو جذوره العرقية، ولا حتى انتماءاته أو معتقداته"[٢].

وأحد الطرق التي توصلنا إلى العيش المشترك الحوار حيث هو "والعيش المشـــترك بينهما رباط عضوي، فالحوار من شأنه أنه يؤكد نقاط التلاقي بين الديانات لا سيما لنا نحن اللبنانين بين المسيحيّة والإسلام، وأن الأمور المشتركة بين المسيحيين والمسلمين أكثر وأهم بكثير من الأمور التي نختلف فيها.

إن استشراف العناصر والمقدمات للحوار بين المسيحيّة والإسلام يبلغ بنا إلى معرفة وتعارف، وهما وحدهما يوصلان إلى اتفاق على صيغة للعيش المشترك، ذلك أن الأمور المشتركة بينهما تشكل الأساس الذي ترتكز عليه علاقات الأخوة والمحبة والتعاون، ونقطة انطلاق لبناء عيش مشترك"[٣].

---

[٢] سيد محمد صادق الحسيني، غريغوار منصور مرشو: نحن والآخر، بيروت - دمشق - دار الفكر المعاصر، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م، ص ٩٦ – ٩٧.

[٣] المطران بشارة الراعي: في تجديد العيش المشترك، المؤتمر الأول ١٢ - ١٤ آيار ١٩٩٤ م، مركز الدراسات والأبحاث الرعويّة في دير مار الياس، انطلياس، ١٩٩٤ م، ص ٢٥.

والعيش المشترك ليس بجديد بالنسبة للمسلمين والمسيحين فقد رأيناه في ظل الدولة الإسلامية يقوم بين أناس تربطهم روابط متعددة حيث يعيشون على أرض واحدة ويتكلمون لغة واحدة، وتجمعهم هموم مشتركة، وطموحات مشتركة، وأهم من كل ذلك أنه تجمعهم وحدانية العبودية لله تعالى، والتي هي دعوة جميع الرسل والأنبياء، وبفضل هذا الإيمان وهذه الروابط، والممارسات الإيجابيّة في ظل الدولة الإسلاميّة تبلورت شخصيّة حضاريّة قامت من خلال المشاركة في الاحتفالات والمناسبات الدينيّة، والإجتماعيّة، والاقتصاديّة، والفكريّة، والإداريّة وغيرها، ولعلّ كلّ ذلك مردّه "إلى تلك الحقوق الكاملة في المواطنية التي أعطيت للنصارى بحيث شعروا أنفسهم جزءاً فاعلاً من المجتمع، ولم يشعروا بحالة اغتراب مع السلطة بيومها. والعلاقة لم تقم فقط على عقود الأمان والحماية فحسب، وإنما لم يحظر الإسلام أي عمل يدوي أو فكري على المسيحيين"(٤).

اني فيما سأطرح عن العيش المشترك الإسلامي والمسيحي سأركز على الجانب الإيجابي، وأنا أدرك أن المطلع على علاقة المسلمين والمسيحين يرى أنه كان فيها جوانب سلبيّة تخالف تلك الأسّس التي وضعها الإسلام في معاملة غير المسلمين وبخاصة المسيحيون، وأنه لم تكن على المستوى نفسه من التطبيق في كلّ فترات تاريخ الدولة الإسلامية، وكذلك في فترات تاريخيّة من العلاقات المسيحيّة والإسلاميّة في أوروبا، وخلال الحروب الصلبية (حروب الفرنجه كما يسميها المؤرخون المسلمون).

إن الأخطاء في الممارسة قد تصدر عن حاكم، وهذه الأخطاء إن صدرت عن شخص بعينه لا ينبغي أن تتخذ للطعن في دين معين، ولا نقول أنها مثلاً وجهة نظر الإسلام، أو المسيحيّة، إنما هي تصرفات فرديّة خاطئة، قد تنشأ بسبب اجتيهاد شخصي، أو أهواء وميول، وكنا نرى من أهل الخير والعلم والحق من يقف في وجهها، وقد رأينا في التاريخ الإسلاميّ أمثلة كثيرة على ذلك.

وقد تحدث أخطاء من عامة الناس، التي قد تكون نتيجة ردات فعل لهجمات يتعرض لها فريق من قبل الفريق الآخر، فما يكون الأمر من العوام إلا الرد يمثل الطريقة التي اتبعت معه.

---

(٤) أسعد سحمراني: الإسلام بين المذاهب والأديان، بيروت، دار النفائس، ط ٢ ١٤١٣ هـ \ ١٩٩٢ م، ص ٧٥.

وقـــد يكون لبعض الفقهاء موقف اجتهادي يطرح في فترة من الفترات في معامـــلة أهل الكتاب، وبخاصة عندما ينطلقون بالمعاملة بالمثل، وأذكر ما قاله ابن القيم، وما أبداه من ضيق من تسلط المسيحيين على شؤون الدولة وكذلك ما سنراه من خلال ما سنقدمه، يقول "وأما اليوم فقد وفقنا إلى زمان يُصدَّرون في المجالس، ويُقام لهم، وتقبَّل أيديهم، ويتحكمون في ارزاق الجند، والأموال السلطانية"[٥].

ويقـــول آدم متز في هذا الأمر أن كثرة عدد العمّال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلاميّة، بحيث كان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بـــلاد الإسلام، والشكوى من تحكم أهل الذمة في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة"[٦].

اضطر للتوقف عند هذا الحد من هذه الأمور السلبية التي مورست، لأنني لا أريد أن أنكأ الجراح. ولنبحث عن ما يجمع لا ما يفرق وأقول بالنسبة للمسلمين لم يكن هذا الموقف مؤسّساً على ما ذهب إليه الإسلام بين وحدة الدين الإلهي وبالتالي وحدة أبنائه، وإخاء اتباع الشرائع السماويّة التي اقتضت حكمة الله ومشيئته التكوينيّة أن يظلّوا أمماً متعددة، إذ لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، ولكن لا يزالون مختلفين، والاختلاف والتنوع في الشرائع، بين أمم الرسالات السماويّة هي إرادة كونية لله. والمسلمون والمسيحيون تجمعهم وحدة الدين في الالوهيّة الواحدة، والإيمان بالبعث والجزاء، والعمل الصالح. يقول سبحانه وتعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل. وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليهم بالمتقين)[٧].

وأمام الواقع المعاصر الذي نعيشه نجد أننا في حاجة إلى العيش المشترك،

---

[٥] محمد بن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة إلى تحقيق صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٨١ م، ص ٧٧١.

[٦] آدم متز: الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، ج١، ترجمة محمّد عبد الهادي ابو ريده، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٦ هــ، ١٩٧٧، ص ٨٣.

[٧] سورة ال عمران ٣: آية ١١٣ — ١١٥.

لا في عالمـــنا العربي والإسلامي فقط، بل في العالم أجمع، وخصوصاً ما يواجهه العـــالم الإسلامي من طروحات صراع وصدام مفتعل في الحضارات وخاصة ما يطرح بين الحضارتين الإسلاميّة والغربيّة، فلا أحد اليوم ينكر ما يواجهه الإسلام والمسلمين من عداء نعرف مظاهره وظواهره، ولكننا نحار في فهم أسبابه وأهدافه، وفي تقديـــرنا أن هـــذا الأسلوب والطريق لا يخدم أحداً حتّى الذين يحركونه، ويرددون ما تطبخه المراكز السياسيّة، ويضخ من خلال المفكرين أمثال صموئيل هانتنجـــتون، وفوكوياما، من صدام للحضارات ونهاية للتاريخ، وما ينسب إلى الإســـلام والمسلمين، ويرسم لهم من صور وأنماط تترسخ في أذهان الآخر والتي أكثرها ظلماً وبهتاناً، أخذ نتيجتها وعانى منها المسلمون في بلاد الغرب، حيث صـــار المســـلم أو العربي في بلاد الغرب يحمل على رأسه شبهة إتهام وتوجس وسوء ظن، وبالتالي يتعرض لحملة قاسية لها وزنها وآثارها.

لكن هذه الحملة مهما أشتدت فلن تغير من مواقفنا سواء في داخل عالمنا الإســـلامي والعربي، أو في داخل العالم الغربي، من قضية الحوار بين الديانات، أو حـــوار الحضـــارات، وهـــذه الهجمة لن تقلل أيضاً من حماسنا للحوار والتفاهم والـــتعاون مـــع الآخر، والعيش والحياة المشتركة، لأنه بالنسبة لنا المسلمين قضية محســـومة عقديًا وفكريًا وحياتيًا، وما في كتابنا هذا خير دليل على العيش المشترك في ظلّ الدولة الإسلامية، الذي نأمل أن نستفيد من مضمونه في وصل حبال الود، والدعوة إلى كلمة سواء، والتعاون على الخير والبر والتقوى في أيّامنا هذه.

أمـــلي كبير في أن يجد هذا الكتاب الآذان الصاغية الواعية المنفتحة، لإزالة تلك الصور الذهنية النمطية التي شاعت وتكررت وترسخت في عقول بعض الناس، بحيث أعطت نوعًا من الحكم التقييمي العاطفي السلبي عن الإسلام والمسلمين.

أنـــا لا أنكر أن الطريق صعب ومليء بالأشواك، ولكن بالإرادة الصادقة، وفي العمل على نشدان الحقيقة، وما نستفيده درساً وعظة من الاتصالات العالميّة في عـــالم أشبه ما يكون بالقربة الصغيرة، سيجعل بإذن الله من العيش المشترك واقعًا وممارسة وسلوكًا.

الفصل الأوّل

وقفة مع العيش المشترك الإسلاميّ والمسيحيّ من خلال كتاب الديارات للشابُشتي

المؤلّف:

ابـــو الحسن بن محمّد المعروف بالشابُشتي، توفي سنة ٣٨٨ هــ/٩٨٨م، وهـــو أديب فاضل تعلق بخدمة العزيز إبن المعز العبيدي [الفاطمي] صاحب مصر، ولاّه خـــزانة كتبه وجعله دفتر خوان يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه، وكان حلو المحاورة لطيف المعاشرة.

أما مؤلفاته فهي: الديارات، اليسر بعد العسر، مراتب الفقهاء، التوقيف والتخويف، مراسلات.

كتاب الديارات:

هذا الكتاب حققه كوركيس عواد، وهو من منشورات مكتبة المثنى ببغداد، مطبعة المعارف، ط ٢، ١٣٨٦ هــ \ ١٩٦٦ م.

يقـــول ابن خلكان عن هذا الكتاب أن الشابُشْتِي ذكر فيه "كلّ دير بالعـــراق والموصل والشام والجزيرة والديار المصريّة، وجميع الأشعار المقولة في كـــل دير، وما جرى فيه، وهو على أسلوب الديارات للخالديين وأبي الفرج الأصفهاني، مع أن هذه الديارات قد جمع فيها تواليف كثيرة"[٨].

---

[٨] ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، دار المأمون بمصر، د. ت، ص ٤٨١.

والناظر في هذا الكتاب يراه يتطرق إلى جوانب ثقافية متعددة من تراجم، وأدب، وبلدان، وتاريخ.

والشابشتي يتحدث في هذا الكتاب عن الأديرة فيذكر، موقعها، ورهبانها، وقساوستها، والمتبتلين فيها، والخلفاء، والأمراء، والوزراء، والكتّاب، والأدباء، والماجنين الذين زاروها، وأخبار بعض الشعراء، ونوادرهم ومجونهم، وقد يذكر الشعر والحكاية بمجونها وخلاعتها وبذاءتها معتبرًا ذلك من باب التطرف، وكذلك يتحدث عن بساتينها وأشجارها ومياهها وأعيادها.

ولقد تحدث الشابشتي عن حوالي (٥٢) ديرًا، اخترت منها نماذج ذات مؤشرات لما كان يحدث فيها من عيش مشترك بين المسلمين والمسيحيّين في تلك الفترة الزمنية التي يتحدث عنها.

نماذج من العيش المشترك في هذه الأديرة:

١ – دير درمالس:

يقع هذا الدير "في رقة باب الشماسية ببغداد قرب الدار التي بناها الديلمي أحمد بن بويه، بباب الشماسية. وموقعه أحسن موقع، وهو نزه كثير البساتين والأشجار، وبقربه أجمة قصب، وهو كبير آهل برهبانه وقساته والمتبتلين فيه، وهو من البقاع المعمورة بالقصف والمقصورة بالتنزه والشرب"(٩).

وفي هذا الدير تقام أحد أعياد الصوم عند المسيحيّين "وعيده أحسن عيد، يجتمع نصارى بغداد إليه، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلاّ تبعهم، ويقيم الناس فيه الأيام، ويطرقون في غير الأعياد"(١٠).

---

(٩) الشابشتي: الديارات، تحقيق كوركيس عواد، منشورات مكتبة المثنى ببغداد، ومطبعة المعارف، بغداد، ط ٢، ١٣٨٦ هـ \ ١٩٦٦ م، ص ٣.

(١٠) المرجع نفسه، ص ٤.

ذكر أحمد بن خالد الصريفيني "قال: كنا عند أبي عبد الله بن حمدون[١١]، في الوقت الذي نفاه المتوكل، فتذاكرنا الديارات وطيبها وحسنها في الأعياد، واجتماع الناس بها، فقال: قد، والله، شهيتني لحضور هذه المواضع والتفرج فيها، والتسلي بها، فأي دير منها قد حضر عيده؟ قلت: دير درمالس، وغدًا عيده! قال: فعلى بركة الله. فأعددت جميع ما يحتاج إليه ويصلح لمثله، وبكرنا إلى الدير ذلك اليوم ومن غده، وجلسنا منه مجلساً يشرف على تلك البساتين والمزارع وطابت نفسه وطرب..."[١٢].

ولأبي عبدالله بن حمدون النديم فيه من الشعر[١٣]:

يا دير درمالس ما أحسنك ... ويا غزال الدير ما افتنك
لئن سكنت الدير يا سيدي ... فإن في جوف الحشا مسكنك
ويحك يا قلب، أما تنتهي ... عن شدة الوجد بمن أحزنك
ارفق به بالله، يا سيدي ... فإنه من حينه مكّنك

٢ – دير سمالو:

كانت تقام الأعياد المسيحيّة في الأديرة، وفي دير سمالو كانت تقام الأعياد، فعيد "الفصح ببغداد فيه منظر عجيب، لأنه لا يبقى نصراني إلا حضره، وتقرب فيه، ولا أحد من أهل التطرب واللهو من المسلمين إلاّ قصده للتنزه فيه. وهو أحد منتزهات بغداد المشهورة، ومواطن القصف المذكورة"[١٤].

---

[١١] أبو عبدالله بن حمدون: أديب لغوي من أهل المائة الثالثة للهجرة، كان أستاذ أبي العباس ثعلب، وخصيصًا بالمتوكل ونديمًا له. (ياقوت الحموي معجم الأدباء ج ٢. مطبوعات دار المأمون، ومكتبة عيسى الحلبي وشركاءه بمصر، د. ت؛ ص ٢٠٤. المرجع

[١٢] الشابشتي: الديارات، مرجع سابق، ص ٥.

[١٣] الشابشتي: الديارات، مرجع سابق، ص ٤.

[١٤] المرجع نفسه، ص ١٤.

يقول خالد الكاتب (ت ٢٦٢ هـ \ ٨٧٥ م) في دير سمالو[١٥]:

يـــا منـــزل القصف في ســـمـــالو مـــا لي عن طـــيـــك انتقـــال
واهًـــا لأيـــامـــك الـــخـــوالـــي والعيـــش صـــافٍ بـــهـا زلال
تـــلك حـــياة النفـــوس حـــقــًا وكـــل ما دونـــها مـــحـــال

٣ – دير الثعالب:

يقـــع هذا الدير في "الجانب الغربي من بغداد بالموضع المعروف بباب الحديـــد، ولا يكاد يخلو من قاصد وطارق، وله عيد لا يتخلف عنه أحد من النصارى والمسلمين"[١٦].

٤ – دير مديان:

يقع هذا الدير على نهر كَرْخايا ببغداد، ويقول الشاعر الماجن الحسين بن الصخاك (ت ٢٥٠ هـــ \ ٨٦٤ م) في دير مديان[١٧].

إني طربت لرهبان مـــجاوبة بالقدس[١٨] بعد هدو الليل رهبـــانًا
فاستنفرت شجنًا مني ذكرت به كرخ العراق وإخـــوانًا وأشجـــانًا
فقلت والدمع في عيني مطردُ والشوق يقدح في الأحشاء نـــيرانا
يا دير مُديان، لا عريت من سكن ما هـــجتُ من سقم يـــا دير مديانا
هل عند قسك من علم فيخبرني بـــين الجنينة والروحاء من كـــانا

---

[١٥] المرجع نفسه، ص ١٥.

[١٦] المرجع نفسه، ص ٢٤.

[١٧] المرجع نفسه، ص. ٣٣ – ٤٣.

[١٨] القدس: صدر الكنيسة أو المذبح فيها، وهو مجتمع القسوس والشمامسة فيه.

٥ – دير أشموني:

يقع هذا الدير بقطربل، غربي دجلة، وعيده اليوم الثالث من تشرين الأول، وهو من الأيام العظيمة ببغداد، يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم، يتنافسون فيما يظهرونه هنالك من زيهم، ويباهون فيما يعدون لقصفهم، ويعمرون شطه وأكنافه وديره وحاناته. ويضرب لذوي البسطة منهم الخيم والفساطيط، وتعزف عليهم القيان. فيظلّ كل إنسان منهم مشغولاً بأمره، ومكبًا على لهوه، فهو أعجب منظر وأطيب مشهد وأحسنه[١٩]!

قال جحظلة: خرجت في عيد من أعياد أشموني إلى قطربل، فلما وصلت إلى الشط، ومددت عيني لأنظر موضعًا خاليًا أصعد إليه، أو قومًا ظرافًا أنزل عليهم، فرأيت فتيين من أحسن الناس وجوهًا وانظفهم لباساً، وأظرفهم آلة، فقدمت سميريتي نحوهما، وقلت أتأذنون في الصعيد إليكم؟ فقالوا: بالرحب والسعة! فصعدت وقلت: يا غلام، طنبوري ونبيذي. فقالا: أما الطنبور فنعم، وأما النبيذ فلا. فجلست مع أحسن الناس أخلاقًا وأملحهم عشرة، وأخذنا في أمرنا[٢٠].

٦ – دير قوطا:

يقع هذا الدير بالبردان إحدى قرى بغداد على شاطىء دجلة، يقول فيه الشاعر والراوية عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع[٢١]:

أقمتُ بالدير حتّى صار لي وطنًا … من أجله، ولبستُ المُسح[٢٢] والصُلبا
وصار شماسه لي صاحبًا وأخـًا … وصار قسيسه لي والدًا وأبا

وله من الشعر أيضًا[٢٣]:

---

[١٩] الشابشتي: الديارات، مرجع سابق، ص ٤٦.
[٢٠] المرجع نفسه، ص ٤٧.
[٢١] الشابشتي: الديارات، مرجع سابق، ص ٦٣.
[٢٢] المسح: ثوب من الشعر غليظ، يلبسه الرهبان على البدن، تقشفًا وقهرًا للجسد.
[٢٣] الشابشتي: الديارات، مرجع سابق، ص ٦٣.

ألا أصحابي يوم الشعانين مـــن قهوة عتقت بكـــركين[٢٤]
عند أناس قلبي بهم كلف وإن تـــولوا دينا غـــير دينـــي

٧ – دير مرمار [دير مرماري]

يقع هذا الدير بسر من رأى [أي سامراء]، عند قنطرة وصيف وهو دير عامر كثير الرهبان[٢٥].

ومن اللافت للنظر زيارات الخلفاء للأديرة، فهذا الفضل بن العباس بن المأمون، وهو من أولاد الخلفاء، وله مكان في الأدب والشعر، وكان عاملا في المدينة سنة ٣٦٩ هـــ \ ٨٨٢ م، يقول:

خرجت ذات يوم مع الخليفة المعتز [العباسي] للصيد، فانقطعنا عن الموكب أنا وهو ويونس بن بغا، فشكا المعتز العطش، فقلت للخليفة المعتز: يا أمير المؤمنين، إن في هذا الدير راهبا أعرفه له مودة حسنة [خفيف الروح]، وفيه آلات جميلة. فهل لأمير المؤمنين أن نعدل إليه؟ قال: إفعل. فصرنا إلى الديراني [أي الراهب القائم بأمور الدين]، فرحب بنا وتلقانا أحسن لقاء، وجاءنا بماء بارد فشربنا. وعرض علينا النـــزول عنده. وقال: تتبردون عندنا ونحضركم ما تيسر في ديرنا فتنالون منه؟ فاستظرفه المعتز وقال: إنزل بنا إليه. فنـــزلنا.

فسألني الديراني عن المعتز ويونس بن بغا، فقلت: هما [فتيان] من أبناء الجند. فقال: بل مفلتان من أزواج الحور! فقلت: هذا ليس من دينك ولا اعتقادك! قال: هو الآن من ديني واعتقادي! فضحك المعتز ثم جاءنا بخبز وأشاطير وما يكون مثله في الديارات، فكان من أنظف طعام وأطيبه، وأحسن آنية: فأكلنا وغسلنا أيدينا. فقال لي المعتز: قل له بينك وبينه: من تحب ان يكون معك من هذين ولا يفارقك؟ قال: فقلت له، فقال: كلاهما وتمرا[٢٦].

---

[٢٤] كركين: بكسر الكاف بينها راء ساكنة، من قرى بغداد قرب البردان، (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ح، ص ٢٦٣).

[٢٥] الشابشتي: الديارات، مرجع سابق، ص ١٦٣.

[٢٦] مثل عربي قديم.

فضحك المعتز حتّى مال [على حائط الدير] من الضحك. فقلت: للديراني: لا بدّ من أن تختار. فقال: الاختيار في هذا دمار!، ما خلق الله عقلاً يميز بين هؤلاء. ثم لحقنا الموكب، فارتاع الديراني [أي لما عرف أن الخليفة هو من في زيارته]. فقال له المعتز: بحياتي لا تنقطع عما كنا فيه، فإني لمن ثم مولى، ولمن ها هنا صديق، فجلسنا ساعة وأمر له المعتز بخمسين ألف درهم. فقال: والله لا قبلتها إلا على شرط. قال: وما هو؟ قال: يكون أمير المؤمنين في دعوتي مع من أحب، فلم يُبق غاية، وأقام بمن كان معه، فجاء بأولاد النصارى فخدمونا أحسن خدمة. فسر المعتز سرورًا ما رأيته سُر مثله. ووصله في ذلك اليوم بمال كثير، و لم يزل يطرقه، إذا اجتاز به ويأكل عنده مدة حياته.

قال: وكان المعتز سمح الأخلاق، واسع النفس، له أدب وفهم، ويقول شعرًا صالحًا. وكان يحب يونس بن بغا، ولا يصبر عليه. وكان هو ويونس بن بغا من أحسن الناس وجهًا وأجملهم، و لم يكن في خلفاء بني العباس أحسن وجهًا من الأمين والمعتز، وكان يضرب بهما المثل في الحسن والجمال[٢٧].

٨ – دير الأعلى:

يقع هذا الدير في الموصل، ويقال أنه لم يكن للنصارى دير مثله، لما فيه من أناجيلهم ومتعبداهم، فيه قلايات [صوامع] كثيرة لرهبانه. وتحت الدير عين كـــبيرة تصب إلى دجلة، ولها وقت من السنة يقصدها الناس فيستحمون فيها. ويذكرون أنها تبرئ من الجرب والحكة وتنفع المقرعين والزمني.

والشــعانين في هذا الدير حسن، يخرج إليه الناس فيقيمون فيه الأيام يشربون، ومن اجتاز بالموصل من الولاة نزله[٢٨]، حتّى الخلفاء. فها هو الخليفة العباسي المأمون، اجتاز بهذا الدير في خروجه إلى دمشق، فأقام به أيامًا، ووافق نزوله عيد الشعانين. فذكر أحمد بن صدقة، قال: خرجنا مع المأمون، فنـــزلنا

[٢٧] الشابشتي: الديارات، مرجع سابق، ص. ص ١٦٤ – ١٦٥.

[٢٨] المرجع نفسه، ص ١٧٦.

الديـــر الأعلى بالموصل لطيبه ونزاهته، وجاء عيد الشعانين، فجلس المأمون في موضـــع منه حسن مشرف على دجلة والصحراء والبساتين، ويشاهد منه من يدخل الدير. وزين الدير في ذلك اليوم بأحسن زي. وخرج رهباته وقساته إلى المذبـــح، وحولهـــم فتياهم بأيديهم المجامر قد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة. فرأى المأمون ذلك فأستحسنه. ثم انصرف القوم إلى قلاليلهم وقربانهم، وعطـــف إلى المأمون من كان معهم من الجواري والغلمان، بيد كل واحد منهم تحفـــة من رياحين وقتهم، فأدناهم، وجعل يأخذ من هذا ومن هذا تحية، وقد شغف بمارآه منهم(٢٩).

وإلى جانب هذا الدير، مشهد عمرو بن الحمق الخزاعي، ومسجد بنته بنو حمدان يتصل بالقبر، ولعمرو بن الحمق الخزاعي صحبة، وكان من أصحاب علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، وشهد معه مشاهده كلها(٣٠).

٩ – دير زكى

يقـــع بالـــرقة على الفرات. وعن جنبيه نهر البليخ. وهو من أحسن الديارات موقعًا وأنزهها موضعًا. وكانت الملوك إذا اجتازت به نزلته وأقامت فيه، لأنه يجتمع فيه كل ما يريدون من عمارته ونفاسة أبنيته ونزهة ظاهرة، لأن لـــه بقايا عجيبة، وبناحيته من الغزلان والارانب وما شاكل ذلك مما يُصطاد بالجارح من طير الماء والحبارى وأصناف الطير. وفي الفرات بين يديه مطارح الشـــباك للســـمك. فهو جامع لكل ما تريده الملوك والسوقة. وليس يخلو من المتطربين لطيبه، سيما أيام الربيع، فإن له في ذلك الوقت منظرًا عجيبًا(٣١).

يقول أحمد بن محمد المعروف بالصنوبري الحلبي (ت ٣٣٤ هـــ \ ٩٤٥ م) وهو شاعر يألف الرياض والحدائق، وأحد شعراء سيف الدولة الحمداني(٣٢).

---

(٢٩) المرجع نفسه، ص ١٧٧ – ١٧٨.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ١٧٩.

(٣١) المرجع نفسه، ص ٢١٨.

(٣٢) المرجع نفسه، ص ٢١٩.

أيا متنــزهي في دير زكّى ألــم تك نزهــتي بين نــزهتين
أردد بين ورد نداك طرفًا يــردَّد بــين ورد الوجــنــتين
ومبتسم كنظمي أقحوان جــلاء الــكلُ بــين شقــيقتين

١٠ – دير عُمْر مر يونان:

يقــع هــذا الدير في الأنبار، على الفرات، وهو عُمر حسن كبير، كثير القلايات [الصوامع] والرهبان. وعليه سور محكم البناء، فهو كالحصن له. والجامع ملاصــقه. ولا يخلو من المتنــزهين والمتطربين. وله ظاهر حسن ومنظر عجيب، ســيما في أيــام الربيع، لأن صحاريه وسائر أراضيه كالحلل لكثرة طرائف زهره وفنون أنواره(٣٣).

ويروي الطبري ان الخليفة العباسي هارون الرشيد عندما اجتاز الأنبار نزل في دير عُمر مر يونان(٣٤).

وقد وصف الشعراء دير عُمر مر يونان وذكروه في أشعارهم، وللحسين ابن الضحاك فيه(٣٥):

آذنك الناقوس بــالفــجر وغَرّدَ الــراهب فــي العــُمرِ
واطردت عيناك في روضةٍ تضحك عن حُمر وعن صُفــرِ

١١ – دير القصير:

هو أحد ديارات مصر يقع في أعلى جبل المقطم على سطح قلته، في هيكلــه صورة مريم في حجرها صورة المسيح عليه السلام. والناس يقصدون الموضــع للــنظر إلى هذه الصورة، وفي أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه بن

(٣٣) المرجع نفسع، ص ٢٥٨.
(٣٤) الطبري، محمّد بن حرير: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، بيروت، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، د. ت، ص ٦٧٥ – ٦٧٨.
(٣٥) الشابشتي: الديارات، مرجع سابق، ص ٢٥٨ – ٢٥٩.

أحمد بن طولون [حكم مصر من سنة ٢٧٠ هـ \ ٢٨٤م - ٨٤٥ \ ٨٥٩م]، لها أربع طاقات إلى أربع جهات. وكان كثير الغتيان إلى هذا الدير معجبًا بالصورة التي فيه[٣٦].

١٢ – قبة الشتيق:

هي من الأبنية القديمة بالحيرة، على طريق الحاج، وبإزائها قباب يقال لها الشكورة، جميعها للنصارى. فيخرجون يوم عيدهم من الشكورة إلى القبة، في أحسن زي، عليهم الصلبان، بأيديهم المجامر، والشمامسة والقسان معهم يقدسون [على نغم واحد، متفق في الألحان]، ويتبعهم خلق كثير من متطربي المسلمين وأهل البطالة، إلى أن يبلغوا قبة الشتيق. فيتقربون ويتعمدون، ثم يعودون بمثل تلك الحال. فهو منظر مليح[٣٧].

ولبعض الشعراء فيه[٣٨]:

والنصارى مشدودي الزناني ... ر عليهم كل حلي وثيق
يتمشين من قباب الشعاني ... ن إلى صحن قبة الشتيق
يا خليلي فلا تعنفني يوم ... ترى اللهو فيه بالتحقيق

١٣ – دير طورسينا ومكتبته:

لا يقتصر زوار الأديرة وساكنوها من رهبان وقساوسة، ومتطربون وأهل بطالة كل على ما نذر نفسه له، بل هناك خزائن للكتب كانت تنتشر في هذه الأديرة، ويرتادها المهتمون بهذا الميدان، ونذكر هنا مكتبة دير طورسينا.

لقد عُرف "هذا الدير بدير سينا أو دير طورسينا، أو دير الطور، بالنظر

---

[٣٦] المرجع نفسه، ص ٢٨٤.

[٣٧] المرجع نفسه، ص ٢٤١.

[٣٨] المرجع نفسه، والمكان نفسه.

إلى وقوعــــه في الجبل الشهير القائم في شبه جزيرة سينا. وهو الجبل الذي كلم الله فوقه النبي موسى [عليه السلام]، على ما ورد تفصيله في التوراة.

على أن لهذا الدير، اسمًا حقيقيًا هو (دير القديسة كاترينة) لكونه أقيم على أسمها.

وكاترينة هذه، هي البتول العضيمة الشهيرة في الشرق والغرب. كان أبواهـــا وثـــنيين من الاسكندرية، ثم أعتنقت هي النصرانية، فنالها من الجور والاضطهاد بسبب ترك دينها القديم ألوان، على يد الملك مكسيميانس، فحكم عـــليها بالموت سنة ٣٠٧ للميلاد... وعيد هذه القديسة يقع في كلّ الكنائس، يوم ٢٥ تشرين الثاني.

وهذا الدير للروم الأرثوذكس، وقد بناه الإمبراطور يوستنيانوس نحو سنة ٥٤٥م.

وفي هذا الدير خزانة كتب تضم نفائس المخطوطات النادرة، بالعربيّة واليونانيّـــة والقبطيّة والحبشيّة والسريانيّة، هذا إلى فرامين تركية. وقد عني غير واحد من الباحثين والمستشرقين بالاطلاع على ما في هذه الخزانة من مخطوطات، فصنفوا في ذلك فهارس نافعة.

وفي هـــذه الخـــزانة طائفة من المخطوطات، مكتوبة على الرق منذ عهد بعيـــد، ويرتقي بعضها إلى صدر النصرانيّة. وفيها كتب مطبوعة، أغلبها باليونانيّة والعربيّة"[٣٩].

يقول ابن عامر في دير طورسينا[٤٠].

يـــا راهب الدير ماذا الضوء والنور فقد أضاء بما في ديـــرك الطور

هل حلت الشمس فيه دون أبرجها أو غيب البدر فيـــه وهو مستور

فقـــال مـــا حله شمس ولا قـــمر لكن تقرب فـــيه اليوم قـــوارير

---

[٣٩] كوركيس عواد: الذيل (٣١)، كتاب الديارات، للشابشتي، مرجع سابق، ص. ٤٢٦ — ٤٢٩.

[٤٠] المقريزي: الخطط، ج ٢، بيروت، دار صادر، د. ت. ص. ٥١٠.

دلالات العيش المشترك:

لقـــد لفت نظري فيما اخترت الحديث عنه من هذه الأديرة، ظواهر ومواقـــف تتعلق بالعيش المشترك بين المسلمين والمسيحيّين، وتبدو هذه الأمور من خلال ما يلي:

أوّلاً: حريّة المعتقد، وممارسة الشعائر، وصون أماكن العبادة:

ركّز الإسلام على حريّة التدين لأهل الكتاب، وأول هذه الحريّات، "حـــريّة الاعـــتقاد والتعبد، فلكل ذي دين دينه ومذهبه لا يجبر على تركه إلى غيره، ولا يضغط عليه أي ضغط ليتحول منه إلى الإسلام"(٤١).

أ – قاعدة لا إكراه في الدين ونتركهم وما يدينون:

إن أســـاس حـــق الحريّة في الاعتقاد والتعبد قوله تعالى (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)(٤٢)، وقوله سبحانه وتعالى (أفأنت تكره الناس حتّى يكونوا مؤمنين)(٤٣).

قال ابن كثير في تفسير آية (لا إكراه في الدين) أي "لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكـــره أحد على الدخول فيه... فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرها مقسورًا"(٤٤).

أما سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، ولكن حكمها عامًا. قـــال ابـــن جرير عن ابن عباس قال: كانت المرأة [في العصر الجاهلي] تكون

---

(٤١) يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلاميّ، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣ م، ص. ١٧.

(٤٢) سورة البقرة، ٢: آية ٢٥٦.

(٤٣) سورة يونس ١٠: آية ٩٩.

(٤٤) اسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، جمع، واختصار وتحقيق محمّد علي الصابوني، بيروت، دار القلم، جده، مكتبة جده، ط ٥، د. ت.، ص. ٣٦.

مقـــلاة(٤٥)، فـــتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أُجليت بني النضير [اليهود] كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عزّ وجلّ (لا إكراه في الدين).

وقال ابن عباس: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال لــه الحصيني، وكان له إبنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلمًا، فقال للنبي صلى عليه وسلم: ألا استكرهما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك(٤٦).

ولـــو نظـــرنا إلى موقف أولئك الآباء الذين يريدون إكراه أولادهم اليهـــود عـــلى العودة إلى الإسلام يبدو أنهم "يريدون حماية أبنائهم من التبعية لأعدائهـــم المحاربين [من اليهود]، الذين يخالفوهم في دينهم وقوميتهم. ورغم الظروف الخاصة التي دخل بها الأبناء دين اليهودية، وهم صغار، ورغم ما كان يســـود العـــالم كلّه حينذاك من موجات العنف والاضطهاد من المخالفين في المذهب فضلاً عن الدين.

رغم كل هذا رفض القرآن الإكراه، بل من هداه الله، وشرح صدره، ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مقسورًا (كما قال ابن كثير). فالإيمان عند المسلمين ليـــس مجـــرد كلمة تلفظ باللسان أو طقوس تؤدي بالأبدان، بل أساسه إقرار القـــلب وإذعانه وتسليمه ولذلك لم يعرف التاريخ شعبًا مسلمًا حاول إجبار أهل الذمة على الإسلام، كما أقر بذلك المؤرخون الغربيون"(٤٧).

فالقاعدة الأساسيّة في معاملة غير المسلمين قاعدة (نتركهم وما يدينون)، وهو المروي من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والمعـــنى الهام التي تقودنا إليه قاعدة (لا إكراه في الدين، وأن نتركهم

---

(٤٥) امرأة مقلاة: هي المرأة التي تلد أولادًا قصار العمر، وكان هذا العمل في الجاهليّة حيث كانت الواحدة تنذر إذا جاءها ولد أن تهوده ليطول عمره.

(٤٦) ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير، مج ١، مرجع سابق، ص. ٢٣٢.

(٤٧) يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مرجع سابق، ص. ص. ١٨ — ١٩.

ومـــا يديـــنون)، إنها ذات معنى هام في التفكير الإسلامي من حيث الاعتراف بشرعية الآخرين، وقبولهم على ما هم عليه، إنها مبنية على ثوابت وعلى رأسها قـــيمة الإنســـان، وأُخـــوة بني الإنسان، والجميع مقبولون ما لم يمارسوا تجاه المسلمين الظلم والعدوان.

وقد ألتزم الحكّام المسلمون بهذا "فأبقوا على الديانات والملل في جميع الـــبلاد الـــتي فتحوها، وأتاحوا لغير المسلمين الحريّة الكاملة في اداء شعائرهم الديـــنيّة"(٤٨). ومارسوا طقوسهم الدينيّة بكل حريّة، انطلاقًا من تلك المكانة الـــتي أعطاهـــا الإسلام لأهل الكتاب ومنهم المسيحيون، إضافة إلى عنصري الأصـــل الواحد وحصانة الآدمية، فالإسلام اعترف بالديانة المسيحية وبالسيد المســـيح عـــليه السلام، واشترط الإسلام ليكتمل إيمان المسلم أن يؤمن بجميع الرســـل والأنـــبياء "وبذلـــك أضاف الإسلام الوشيجة الإنسانيّة، فمحورها الأساسي أن الأديان الثلاثة تؤمن بإله واحد لا شريك له"(٤٩).

وفي ضوء هذا التقارب بين الإسلام والمسيحية نفهم الحديث النبوي الشريف، عن أبي هريرة أن النبي محمّد صلى الله عليه وسلم قال: الأنبياء إخوة لعـــلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي"(٥٠).

فالحديث هذا يشير إلى أن الأنبياء مثلهم في اتحاد عقائدهم وأصولها، وأصول دياناتهم، واختلاف شريعة كل واحد منهم، مثل الإخوة من أب واحد وأمهاتهم مختلفة.

ولـــو رجعـــنا إلى التاريخ لرأينا أمثلة لهذا العيش المشترك، والاحترام لعقيـــدة الآخر. وقد أتيح لأهل الكتاب أن يؤدوا شعائرهم على أكمل وجه، فحريّة ممارسة العبادة، وأداء الشعائر من الأمور البدهية التي يتضمنها أي عقد أو معاهدة يبرمها المسلمون مع غيرهم.

---

(٤٨) ادوار غالي الذهبي: أقول لدعاة الفتنة الطائفية، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٠ م، ص. ٩٨.

(٤٩) المرجع نفسه، ص. ١٠٠.

(٥٠) رواه البخاري وأحمد.

ب – صون أماكن العبادة وحمايتها:

جعـــل القرآن الكريم حماية المعابد وأماكن العبادة أحد الأسباب التي أبيح لأجلها الجهاد في الإسلام، قال سبحانه وتعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صـــوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)[٥١].

هـــذه الآيـــة الكريمة "تدل على أنه لولا ما شرع الله تعالى للأنبياء وللمؤمنين من جهاد الأعداء لاستولى أهل الشرك والكفر على أماكن العبادة، ولتعطـــلت عبادة الله تعالى في تلك الأماكن، ولكنه أوجب القتال ليتفرغ أهل الأديان للعبادة.

فالمســـلم يبذل ماله وروحه، وكل ما يملك لأجل حماية العابدين من أهل الملل المختلفة، واستمرار بقاء معابدها"[٥٢].

جـــ الاحتفال بالأعياد المسيحية ومشاركة المسلمين فيها:

لقـــد احـــتفل المسيحيون بأعيادهم ومناسباتهم، وكانت من الأمور المألوفـــة لـــدى المجتمع الإسلامي وتتم في جو من الحرية والتسامح، ولم تكن بمعـــزل عن المسلمين، لأنها كانت تجري إما في أماكن العبادة أو في الشوارع يتقدمهم رجال الدين المسيحي بألبستهم الكهنوتية. وبحمل الصلبان، "ويذكر ان الـــبطريرك ميخائيل دخل مدينة الاسكندرية في احتفال رائع وبين يديه الشموع والصـــلبان والأناجيل، والكهنة يصيحون: قد أرسل الرب إلينا الراعي المأمون الـــذي هو مرقس الجديد. وهذا كان في ظلّ الدولة الأموية وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك"[٥٣].

---

[٥١] سورة الحج ٢٢: آية ٣٩ – ٤٠.

[٥٢] بسام داود عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، لا. م، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٨ هـــ \ ١٩٩٨ م، ص. ٤٨.

[٥٣] فهمي هو يدي: مواطنون لاذميون، القاهرة، بيروت، دار الشروق، ط ٣، ١٤٢٠ هـــ \ ١٩٩٩ م، ص. ٦٧.

وهـا هو المقريزي يحدثنا عن الاحتفالات والأعياد المسيحية في مصر إضـافة لما حدثنا عنه الشابشتي، ويذكر كيف احتفل المسيحيون بعيد الغطاس في عهد الاخشيديين وينقل عن المسعودي في مروج الذهب حيث يقول: "لقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر. والاخشيد محمّد بن طفج في داره المعروفة بالمختار في الجزيرة الراكبة على النيل والنيل مطيف بها، وقد أمر فأسـرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وحضر النيل في تلك الليلة مئو ألوف من الناس من المسلمين والنصارى منهم في الزواريق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب وآلات الذهـب والفضـة والجواهر والملاهي والفرق والقصف وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورًا ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة الداء.

وقـال المسيحيّ في سنة ثمان وثمانين وثلثمائة كان غطاس النصارى (أي عيد الغطاس) فضربت الخيام والمضارب والأشرعة في عدة مواضع على شاطىء النيل، فنصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصراني والضارب كاتب الأسـتاذ بـرجوان وأوقدت له الشموع والمشاعل، وحضر المغنون والملهون وجلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف.

وقال في سنة خمس عشرة وأربعمائة وفي ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة كان غطاس النصارى فجرى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضأن وغيره، ونـزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم لقصر جده العزيز بالله [الفاطمي] بمصر لنظر الغطاس ومعه الحرم... وأمر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بـأن توقـد المشـاعل والنار في الليل فكان وقيدًا كثيرًا وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فقضوا هناك طويلاً إلى غطسوا.

وقال ابن المأمون: "انه كان من رسوم الدولة أنه يُفرق على سائر أهل الدولـة الترنج والنارنج والليمون المراكبي وأطنان القصب والسمك والبوري برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام"[٥٤].

---

[٥٤] المقريزي: الخطط، ج ٢، بيروت، دار صادر، د. ت، ص. ص. ٤٩٤ – ٤٩٥.

وكـــان للناس عند خليج الخور مجتمع يكثر فيه لهوهم ولعبهم، وفي سنة ٤١٥هـــ كان ثالث الفتح فاجتمع عند كنيسة المقس في مصر خلق كثير مـــن النصارى والمسلمين في الخيام للأكل والشرب واللهو وشوهد من سُكر النساء وتهتكن وحملهن في قفاف الحمالين سكارى[٥٥].

أما عيد الميلاد في مصر "فهو اليوم الذي ولد فيه عبد الله ورسوله المسيح عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم والنصارى تتخذ ليلة يوم عيد الميلاد عيدًا... وكان من رسوم الدولة الفاطمية فيه تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية والمـــتارد التي فيها السمك وقرابات الحلاب وظيافير الزلابية والبوري فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف والأقلام بتقرير معلوم"[٥٦]. (انتهى المقريزي)

لقد منحت الدولة الإسلامية الحرية لرجال الدين المسيحي لممارسة طقوسهم الديـــنيّة، وأبقـــت سلطانهم على رعاياهم دون تدخل الدولة في ذلك، فقد شعر المسيحيون من سكان البلاد بالحرية في ذلك ما لم يشعروا ببعضه في حكم الروم.

ولا شكّ أن كل هذه السلوكيات الإيجابيّة تجاه المسيحيّين في الدولة الإســـلاميّة تعود إلى تلك التربية الإسلاميّة التي تربى عليها المسلمون، وللسير على النهج الذي رسمه الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده.

د – نـــماذج من عهود إسلاميّة مربية رائدة:

١ – الرسول محمّد صلى الله عليه وسم وأهل نجران:

لقد اشتمل عهد النبي محمّد صلى الله عليه وسلم لأهل نجران المسيحيّين بأنه "لأهل نجران وحاشيتهم جوار الله، وذمة محمّد النبي رسول الله،على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وبيعتهم، وصلواتهم، لا يغيروا أسقفًا عن أسقفيته، ولا راهبًا عن رهبانيته"[٥٧].

---

[٥٥] المرجع نفسه، ص. ٤٩٤.

[٥٦] المرجع نفسه، والمكان نفسه.

[٥٧] محمّد بن سعد الواقدي: الطبقات الكبرى، ج ١، تصحيح وطبع ادوار سخو، ليدن، مطبعة بريل، ١٣٢ هـــ. ص. ٢٨٨.

٢ – عهد الخليفة عمر بن الخطاب لأهل إيليا (القدس):

هـــذا مـــا أعطى عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وســـائر ملتها، ولا تسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا مـــن صليبها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم"[٥٨].

ومن منا لا يذكر ذلك الموقف المشرف للخليفة عمر بن الخطاب، عندما رفض أن يصلي بالكنيسة في القدس، رغم الدعوة التي وجهت إليه من القيمين عـــليها للقيام بالصلاة، ولكنه رفض ذلك لأنه لا يريد أن يسن سنة لا تقبلها العقـــود والعهود المعطاة من المسلمين للمسيحيّين، وحتّى لا يدعي المسلمون فيما بعد أن عمرًا قد صلى في هذا المكان ويعملوا على تحويله إلى مسجد.

٣ – وهـــذه عهـــود وعقود الجوار والحماية التي عقدها الفاتحون المسلمون في أية منطقة دخلوها خير دليل على ذلك:

أ – عهد خالد بن الوليد لأهل عانات قرب بيت المقدس:

يقـــول في هذا العهد "ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار، إلاّ في أوقات الصلاة [عند المسلمين]، وأن يخرجوا الصلبان في أيام أعيادهم"[٥٩].

ب – عهد ابو عبيدة عامر بن الجراح لأهل دمشق، وبعلبك:

لقـــد اشترط ابو عبيدة بن الجراح على أهل دمشق حين دخلها فاتحًا "على أن تترك كنائسهم وبيعهم"[٦٠].

---

[٥٨] الطبري، محمّد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، مرجع سابق، ص. ١٥٩.

[٥٩] يعقوب بن ابراهيم (ابويوسف): الخراج، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، ط ٢، ١٣٨٣ هـــ، ص. ١٤٦.

[٦٠] المرجع نفسه، ص. ١٣٨.

وصالح أهل بعلبك بعهد جاء فيه "هذا كتاب أمان لفلان ابن فلان، وأهـل بعلـبك رومهـا وفرسها وعربها، وعلى أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم، داخل المدينة وخارجها... ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها"(٦١).

جـ ـ عهد عمرو بن العاص لأهل مصر:

لقـد ورد في معاهدة عمرو بن العاص لأهل مصر ما نصه: "هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم..."(٦٢).

د ـ عهد محمّد الفاتح لأهل القسطنطينية:

حـين استولى السلطان العثماني محمّد الفاتح على القسطنطينية، أعلن يومـئذ "تأمين سكانها ـ وكلهم نصارى ـ على أموالهم وأرواحهم وعقائدهم وكنائسـهم وصلبانهم، وأعفاهم من الجندية، ومنح رؤساءهم سلطة التشريع والفصـل في الخصومات التي تقع بين رعاياهم، دون أن تتدخل الدولة فيها! فرأى سـكان القسطنطينية فرقًا كبيرًا بين ما كانوا يعاملون به في عهد البيزنطيين وبين معاملة السلطان محمّد الفاتح لهم"(٦٣).

لقـد كان هذا التسامح الديني حقًا، لم يعهد المسيحيّون له "مثيلاً من أبناء ملـتهم الحـاكمين من قبل، حتّى كان بطريرك الروم بما أعطي من السلطان محمّد الفـاتح أشـبه بحكومـة وسط حكومة، وظلّ هو وجماعته متمتعين بخير حال نحو خمسمائة سنة وهم مستقلون بالفعل ولا يتقاضاهم استقلالهم جندًا ولا مالاً"(٦٤).

---

(٦١) البلاذري: فتوح البلدان – تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، د. ت، ص. ١٢٦.

(٦٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ص. ١٠٩.

(٦٣) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، بيروت، الرياض، دار الوراق للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٠ هـ \ ١٩٩٩ م، ص. ١٣٧.

(٦٤) المرجع نفسه، ص. ١٣٨.

ولعـــل من أعظم الشواهد الواقعية على حرية المعتقد في الإسلام ما تحدث عنه الشابشتي عن عدد كبير من الأديرة، وما نراه من الكنائس والأديرة الآن "منتشرة في كل مكان من بقاع العالم الإسلامي، وهي شواهد عيان تنطق بحـــريّة التعبد التي جاء بها الإسلام، فلو أن المسلمين كانوا كغيرهم من اتباع الملل والنحل لما شوهد برج كنيسة واحد، ولما سمع صوت ناقوس"(٦٥).

وهذا الإنتشار الواسع للأماكن الدينيّة المسيحيّة يعود كما يقول آدم متز إلى أن "الحكومة الإسلاميّة لم تكن لتتدخل في شعائر أهل الذمة الدينيّة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم"(٦٦).

إن اللافـــت للـــنظر وما يهم في مشاركة المسيحيّين والمسلمين في حياة مشتركة "ليس ما أدت إليه من وقائع وتفاصيل وما تطورت إليه طريقة تنفيذها بل مـــا تعـــبر عنه كنتيجة لحرية القول والعمل التي أعطيت لغير المسلمين في مختلف عصور الدولة الإسلامية ولو كان للإسلام موقف آخر، لكانت النتائج مختلفة تمامًا ولما أمكن لهذه الأعياد أن تصبح تقليدًا لدى المسلمين كما كانت لدى غيرهم.

وثمة مع كثرة الظواهر الناتجة عن اندماج أهل الكتاب في المجتمع الجديد ظاهـــرة أخـــرى، وهي دور الأديرة المتناثرة في كل مكان من البلاد الإسلامية والمتركزة بشكل خاص في أهم الحواضر وأشدها تأثيرًا في حياة العالم الإسلامي يومذاك في بغداد والقاهرة ودمشق"(٦٧).

وحـــتى عـــندما يحتفل المسلمون بأعياد النصارى فهذا لا يحدث إلاّ عندما يكـــون لهذه الأعياد "وقع في نفوس المسلمين يجعلهم يحتفلون بها احتفالهم بأعيادهم، ويجب أن يكون التفاعل الاجتماعي والحضاري والوحدة الاجتماعيّة قد بلغت شأوا بعيدًا في نفوس الناس وقلوبهم ولا يمكن كما يحدثنا علماء النفس والاجتماع، لذلك أن يتم وسط أي خوف أو أي ظلم وحتى أية حيرة تلم بأحد الجانبين الدينيين.

(٦٥) بسام داود عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، مرجع سابق، ص. ٤٧.

(٦٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ط ١، ترجمة محمّد عبد الهادي أبو ريده القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٦ هـ \ ١٩٧٧ م، ص. ٦٤.

(٦٧) حسن الزين: أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، بيروت، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ١٤٠٢ هـ \ ١٩٨٢ م، ص. ٤٠.

ولو كان الجانب المسيحيّ غير مطمئن أمنيًا واجتماعيًّا وحتّى سياسيًّا لمـــا مكن لهذه المشاركة ولو بصورة غير مباشرة، أن تتم بالشكل الذي كانت تـــتم فيه وفي الفترات الطويلة التي لم يقطعها سوى فترات لم تكن ذات بال، لأن هـــذه الظواهر الشاذة بحد ذاتها تأكيدًا للأمن الإجتماعي الذي كان يتمتع به أهل الكتاب.

ولو كان المسلمون يعانون من عقدة الخوف أو الحقد أو الكراهيّة للطرف الآخر لما أمكن لتلك المظاهر أن تأخذ المدى الذي بلغته من الإلفة والإندماج"[٦٨].

ثانيًا: زيارة الخلفاء والمسؤولين المسلمين للأديرة وتبادل الود والمحبة:

لقد رأينا من خلال كتاب الديارات تلك الزيارات التي كان يقوم بها كبار المسؤولين في الدولة الإسلاميّة وعلى رأسهم الخليفة، وما كان يقوم من مودة بينهم وبين رهبان وقساوسة الدير.

إن زيـــارة الخليفة المسؤول الأوّل في الدولة الإسلامية للأماكن المقدسة المســـيحيّة والمشاركة باحتفالاتهم هو وغيره من المسؤولين، يجعل منه قدوة ومثلاً للرعية في إقامة صلات المودة بين المسلمين والمسيحيّين. "ولقد عبر الوحي القرآني في آيـــة شـــهيرة عن طبيعة العلاقات التي يطمح الإسلام إلى إنشائها مع المسيحية والمسيحيّين ومنها يتبين صورة المسيحية في المفهوم الثقافي الإسلامي"[٦٩].

ويتمـــثل ذلك في قوله تعالى (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنـــزل الله إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)[٧٠].

---

[٦٨] حسن الزين: أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، مرجع سابق، ص. ص. ٤٥ — ٤٦.

[٦٩] محمّد مهدي شمس الدين: المسيحية في المفهوم الثقافي الإسلامي المعاصر، محاضرة القيت في المؤتمر الدولي في العاصمة الإيطالية روما، في الفترة الممتدة ما بين ٦ — ٨ مايو، ٢٠٠٠ م.

[٧٠] سورة المائدة ٥: آية ٨٢ — ٨٣.

وكـان بعـض الولاة "يظهرون للنصارى المودة البالغة، من ذلك ما يرويه ابن المقفع الأشموني من أن القاسم كان يحب (أنبا ميسس) أكثر من جميع الأساقفة ويحضر له صغاره ليباركهن [بحضور ساويرس]، ويقول للأنبا: هؤلاء هم أولادك ضع يدك عليهم، باركهم بأعظم البركة.

وقـال الأنبا ابراهيم أسقف الفيوم: إنني أكرمك كرامة عظيمة انني جعلت زوجتي ابنة لك.

أمـا حسان الذي استعمل واليًا سنة ١٢٧ هـ فكان لا يكتم حبه للكـنائس والأساقفة والرهبان، وطالما كان يشاور الأب القديس أنبا ميسس لأجل خلاص نفسه"[٧١].

إن الخـلفاء والولاة لم يكونوا ليقدموا على كل هذا لولا تلك التربية الـتي ربـاهم عليها الإسلام إن كان لما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشـريفة، أو احترامًا لتلك العهود والمواثيق والنصوص التي تنظم علاقات أهل الكتاب بسائر فئات المجتمع ومنهم المسيحيون وإذا كانت سلوكيات المسؤولين في الدولة الإسلاميّة على هذه الصورة "في عصر كان للدين فيه أكبر الأثر في تنظـيم الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة لأفراد ملته، إذا كانت تلك الممارسـة على تلك الدرجة من الحرية والحماية فإن بالإمكان تصوّر أثرها في حيـاة المجتمع بكامله، وتربيته وتطوره في اتجاه التسامح الذي يشتد ويمتد أثره ويزداد جيلاً بعد جيل"[٧٢].

ثالثًا: الجامع وبجواره الدير والكنيسة:

يلاحـظ كما أورد الشابشتي مجاورة الأماكن المقدسة المسيحيّة من أديرة وكنائس للأماكن المقدسة الإسلاميّة، فها هو دير عُمر يونان في الأنبار على الفرات وملاصق للجامع، وكذلك دير الأعلى بالموصل مجاور لمسجد بنته بنو حمدان.

---

[٧١] ا. س. ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي، ط ٥، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ م، ص. ١٦٢ — ١٦٣.

[٧٢] حسن الزين: أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، مرجع سابق، ص. ١١٦.

وكذلـــك فإن كثيرًا من الكنائس كان يصلي فيها المسلمون والمسيحيّون وكذلك يصلون في المساجد، فقد رأينا كيف سمح النبي محمّد صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران أن يصلوا في مسجده بجانب المسلمين وهم يصلون صلاهم. وذلك لما "قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصـــر... وقد حانت صلاقم، فقاموا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلُّون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوهم فصلوا في الشرق"[(٧٣)].

وفي "كنيســـة يوحنا الكبرى في دمشق التي أصبحت الجامع الأموي فـــيما بعد، رضي المسيحيّون أن يأخذ المسلمون نصفها ورضي المسلمون أن يصـــلوا فيهـــا صلاقم، فكنت ترى في وقت واحد أبناء الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة يصلون متجاورين، هؤلاء يتجهون إلى القبلة، وأولئك يتجهون إلى الشـــرق. وإنه لمظهر عجيب فريد في التاريخ له مغزى عميق في الدلالة على التسامح الدينيّ الذي بلغته الحضارة العربيّة الإسلاميّة"[(٧٤)].

ورغـــم الحروب التي قامت بين المسلمين والروم البيزنطيين المسيحيّين أثناء الفتح الإسلاميّ لبلاد الروم في منتصف القرن السابع الميلادي، ورغم هذا كما يقول المطران بسترس "بقي المسيحيّون والمسلمون يعيشون جنبًا إلى جنب في التآخي والاحترام المتبادل، فكانت المساجد تُبنى إلى جانب الكنائس، وكانت أصوات المآذن تتزامن مع أصوات الأجراس"[(٧٥)].

يقول آدم متز "كان وجود النصارى بين المسلمين سببًا لظهور ومبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون. ولكن الحاجة إلى المعيشة المشتركة ومـــا ينبغي أن يكون فيها من وفاق أوجدت من أول الأمر نوعًا من التسامح الذي لم يكن معروفًا في أوروبا في العصور الوسطى"[(٧٦)].

---

(٧٣) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ج ٢، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٥ هـ \ ١٩٣٦ م، ص. ص. ٢٢٣ – ٢٢٤.

(٧٤) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص. ١٣٨.

(٧٥) المطران كيرلّس سليم بسترس: أفكار وآراء في الحوار المسيحي الإسلامي والعيش المشترك، جونية – لبنان، المكتبة البولسيّة، ١٩٩٩ م. ص. ١٦٢.

(٧٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج ١، مرجع سابق، ص. ٥٥.

رابعًا: اللهو والطرب والشراب وحصانة الأديرة:

لوحظ من خلال ما كتب الشابشتي عن زيارة بعض المسلمين للأديرة ومشاركتهم في الأعياد والأحتفالات المسيحيّة وخصوصاً الشعراء منهم، وتعظيم هؤلاء الشعراء لهذه الأديرة ولمن فيها من رجال دين مسيحيّ، وكيل المديح والثناء عليهم. وكيف أصبحت الأعياد والاحتفالات ذات وقع في نفوس المسلمين، وتقوم على نوع من المودّة والمحبة دون خوف ولا وجلّ.

وكل ذلك نتاج احترام المسلمين للعقود والعهود التي أقاموها مع المسيحيّين، وطبقوا مبادىء العيش المشترك والتسامح الذي رباهم عليها الإسلام.

وهل يكون بعد هذا استغراب عندما يتعاون المسيحيون مع الفاتح العربي المسلم كما حصل مع أهل حمص حينما صرحوا عما في قلوبهم بقولهم "يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، وأنتم أوفى لنا، وارأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم - أي الروم - غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا"[٧٧].

وأقف عند الشابشتي وأديرته، ولأتحدث عن الأعياد المسيحيّة واحتفالاتها، وعن الشعراء ومجونهم وخلاعة بعضهم وبذاءته، وعن اللهو والطرب والشراب الذي يتعاطاه بعض المسلمين في هذه الأماكن والمناسبات، فأقول إن حرمة الأديرة جعلت الخلفاء والحاكمين يغضون الطرف عن ما كان يجري في أعياد النصارى واليهود أحيانًا كما سبق بيانه، داخل بعض الأديرة من تعاطي بعض المسلمين الشراب حتّى السكر الشديد، وما حدث عام ٤١٥هـ في مصر وسبق أن بيناه [كما ورد عند المقريزي في الخطط]، كل ذلك ينم عن حصانة كانت تتمتع بها المؤسّسات التابعة لأهل الكتاب بعيدًا عن تدخل سلطة الدولة، ولا شيء غير ذلك كان يمكن أن يمنع السلطة من التدخل كما كانت تفعل دائمًا في مثل هذه المناسبات في الأوساط الإسلاميّة، حيث كان شارب الخمرة يسجن ويمنع

---

[٧٧] البلاذري: فتوح البلدان، مرجع سابق، ص. ١٣٧.

كذلك متعاطي اللهو المحرم، وتطبق بحقه الحدود في نفس الوقت التي تحدثنا عن حصـــانة تحمي المسلم من العقوبة على ما يرتكبه من شرب ولهو داخل تلك المؤسّسات. والتاريخ يوضح بإسهاب ما كان يتعرض له بعض الشعراء والماجنين مـــن عقوبات تواجههم رغم منـــزلة بعضهم عند الخلفاء. لكنه لا يتحدث عن تدابـــير تـــتخذ في أيام يتعاطى فيها نساء الخمرة حتّى السكر وحتّى يحملن في (قفـــاف الحمـــالين) نتـــيجة حفل تقام في دير أو في كنيسة وهو ما كان كثير الحـــدوث! ومـــا لا يمكن أن يفسر بغير وجود حصانة أقرها المجتمع الإسلامي لمؤسّســـات أهل الكتاب وأشخاصهم، والتسامح لا يمكن أن يخرج من كتاب يُقـــرأ أو عظة تُسمع، أو حديث يُبلَّغ، ولكنه حالة نفسيّة اجتماعيّة تسود مجتمعًا بعينه عندما تأخذ قوة الفرضية في نفوس أبنائه(٧٨).

خامساً: الاندماج الإجتماعيّ الإسلاميّ المسيحيّ:

لقد بلغ الاندماج الإجتماعي بين المسلمين والمسيحيّين في ظلّ الدولة الإسلامية مرحلة من التقدم كبيرة من خلال، التزاوج كحق زواج المسلم من المسيحيّة، والسكن والأطعمة وتبادلها، والمشاركة في أدوات الحياة اليوميّة كالوظائف والصـــناعات والملابس وعمارة البيوت، ومواجهة المشكلات والأخطار المشتركة وغيرها.

فالإســـلام أباح للمسلم مؤاكلة المسيحين والأكل من ذبائحهم، ولذا كنا نرى الخلفاء والولاة وغيرهم يمارسون هذا إنطلاقًا من قوله تعالى (اليوم أحلّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم)(٧٩).

وسنعرض لبعض النماذج من هذا الاندماج الإجتماعي الذي كان ضرورة في عصر انتشر فيه المسيحيّون في العالم الإسلاميّ لدرجة أنه "كان في مدينة بغداد في أول القـــرن الثالث الهجري ما بين أربعين وخمسين ألف نصراني، وأن أكثر أهالي

---

(٧٨) حسن الزين: أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، مرجع سابق، ص. ٤٤.

(٧٩) سورة المائدة ٥: آية ٥.

مدينـــة الـــرها وتكريت من النصارى وأن فيها كثيرًا من الأديرة القديمة التي تقارب عهد عيسى عليه السلام والحواريين، لم يتغير أبنيتها وثاقة وجلدًا"[٨٠].

١ – مشاركة المسلمين للمسيحيين في أفراحهم وأحزانهم ومواجهة المشاكل المشتركة:

انطلق المسلمون في هذه المشاركة من تعاليم الإسلام قرآنًا وسنة قولاً وعمـــلاً، فالرسول محمّد صلى الله عليه ةسلم "كان يحضر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم، ويواسيهم في مصائبهم، ويعاملهم بكل المعاملات التي يتبادلها المجـــتمعون في جماعة يحكمها قانون واحد، وتشغل مكانًا مشتركًا، فقد كان يقـــترض مـــنهم نقودًا ويرهنهم متاعًا. ولم يكن ذلك عجزًا من أصحابه عن إقراضه، فإن بعضهم كان ثريًا وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله، وإنما كان ذلك تعليمًا للأمّة وتثبيتًا عمليًا لما يدعو إليه من سلام ووئام، وتدليلاً على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم"[٨١].

وكان النبي محمّد صلى الله عليه وسلم يعود مرضى غير المسلمين، ويزور جيرانه منهم، ويحسن إلى محتاجهم، ويدعوهم إلى الإسلام بكل رفق ولين[٨٢].

وكانت بيوت المسلمين والمسيحيّين وغيرهم من أهل الكتاب متلاصقة مجـــاورة، ويشهد على ذلك ما كان يقوله عبدالله بن عمرو عندما كان غلامه يســـلّخ شاة، يا غلام! إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي. فقال رجل من القوم: اليهـــودي؟ أصـــلحك الله؟ قال: إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يوصي بالجار حتّى خشينا – أو رؤيتنا – أنه سيورثه[٨٣]. (حديث صحيح)

ولعـــل من الشواهد أيضاً على تلك العلاقة الاجتماعيّة الراقية، ذلك العيـــش والحياة المشتركة الإيجابيّة بين المسلمين والمسيحيّين حيث "جرت عادة

---

[٨٠] آدم متز: الحضارة الإسلاميّة، ج ١، مرجع سابق، ص. ٦٤.

[٨١] أحمد عُمر الحوفي: سماحة الإسلام، دراسات إسلاميّة ٤، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، د. ت. ص. ٨٧ – ٨٨.

[٨٢] أنظر: محمّد بن اسماعيل البخاري: الأدب المفرد، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٦ هـــ \ ١٩٩٦ م، ص. ٥٦.

[٨٣] محمّد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ج ٤، القاهرة، المطبعة الحسينية المصرية، ط ١، ١٣٢٨ هـــ، ص. ٤.

المسلمين في إسنا من صعيد مصر في أفراحهم وأعراسهم على دعوة النصارى الذين يغنون بالقبطيّة الصعيديّة ويمشون أمام العروس في أسواق إسنا وشوارعها، ويقـــول أبـــو صالح الأرمني تعقيبًا على ذلك أن هذا صار عندهم عرفًا وعادة مســـتقرة إلى عصره"[٨٤] وكذلك هذا مؤشر لاستخدام اللغة القبطيّة إلى جانب اللغة العربية، لغة الدولة والمجتمع آنذاك.

وها هو ابن الأثير يذكر لنا في حوادث سنة ٣١٩ هـ [٩٣١ م] في شـــوال تلك السنة، "جاء إلى مدينة تكريت في شمال العراق سيل كبير من المطر نزل في البحر، ففرق خلق كثير من الناس، ودُفن المسلمون والنصارى مجتمعون، لا يُعرف بعضهم من بعض"[٨٥].

وكذلك عندما ينقطع المطر، أو يشح، نعرف أن المسلمين يؤدون صلاة الاستســـقاء ويتجمعون في أماكن عامة يدعون الله أن يرسل عليهم المطر، وكانت تخـــرج المواكـــب من المسلمين والمسيحيّين وغيرهم، يقول آدم متز: "يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الأسقف واليهود ومعهم النافخون في الأبواق"[٨٦].

وإذا دققنا النظر في هذه الظاهرة التي نراها غريبة "في بلد إسلاميّ ولكنها شـــديدة التعبير عن الاحترام الذي يبديه الناس والحكام نحو النصرانيّة واليهوديّة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما للمطر من أثر في حياة تلك المجتمعات التي تعتمد الزراعة بدرجة أولى، وما بدا من اعتمادهم لصلاة خاصة في هذا الشأن تقام في الأعـــوام الـــتي يشـــح فيها المطر وتدعى صلاة الاستسقاء نستطيع تقدير البعد الفكـــريّ والدينيّ التي ترمز إليه هذه الواقعة بما فيها من تسامح يصل إلى درجة الارتفاع بالإيمان النصرانيّ أو اليهوديّ نحو مرتبة الاعتراف بشيء من مما يسميه المســـلمون (الكـــرامات) يعززه ما كان لإنعدام المطر من آثار سيئة في إحداث المجاعات والمشكلات الاقتصاديّة المخيفة، يجري التقرب إلى الله من أجل تلافيها بواسطة طقوس يتحدث عنها المؤرخون بشيء من الإطالة"[٨٧].

---

[٨٤] ا. س. ترتون: أهل الذمّة في الإسلام، مرجع سابق، ص. ١٧.

[٨٥] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧ هـ \ ١٩٦٧ م، ص. ٢١٦.

[٨٦] آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج ١، مرجع سابق، ص. ٣٨.

[٨٧] حسن الزين: أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، مرجع سابق، ص. ٤١.

وها هم المسلمون يشاركون في تشييع جنازات المسيحيّين، فأم الحارث بن ربيعة ماتت وهي نصرانية، فشيعها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢ – المصاهرة من خلال الزواج:

لقد شاع التزاوج بين المسلمين والمسيحيّات وغيرهم، وانتشر هذا في الشـــرق والغرب، ومثلاً في الأندلس لم يقتصر ذلك الأمر على "الأندلس وحدها بل وبين المسيحيّين من خارج الأندلس أعني بالذات أسبابنا المسيحية أو الشمالية، وليس فقط على عامة الشعب بل ومع حكّام الأندلس، ولم يكن عبد الرحمن الناصر إلاّ حفيد أميرة مسيحية من بلاد البشكتس"[٨٨].

ويذكـــر في المشرق على سبيل المثال أن زوجة الخليفة الثالث عثمان بـــن عقان نائلة [بنت الفرافصة] (كانت نصرانيّة تنتمي إلى قبيلة كلب، وأن زوجة معاوية بن ابي سفيان الخليفة الأموي الأول ميسون [بنت بحدل] كانت نصرانيّة[٨٩]. ومن بني كلب أيضاً وكلاهما شاعرتان.

وكـــان خالد القسري واليًا على العراقين، وأمه نصرانية رومية كان يـــراعي جانبها ويكرم النصارى من أجلها، فاعتز النصارى في أيامه... وكان يطلق أيديهم في الحكومة يستبدون بها[٩٠].

ولعـــلي هنا. أقف عندما يقوله الإمام محمّد عبدة حول المصاهرة مع أهـــل الكـــتاب، يقول: لقد أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية كـــانت أو يهودية، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها، وهي منه بمنـــزلة البعض من الكل، وألزم له من الظلّ وصاحبته في العزّ

[٨٨] عبد الرحمن علي الحجي: الحضارة الإسلامية في الأندلس، بيروت، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٣٨٩ هـ \ ١٩٦٩ م.

[٨٩] فيليب حتي وآخرون: تاريخ العرب (مطول)، ج ٢، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، د. م.، ١٩٤٩ م، ص. ٤٣٥.

[٩٠] جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، بيروت، دار منشورات مكتبة الحياة، ١٩٦٧ م، ص. ٨٩.

والذلّ والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه.

لم يفـــرق الديـــن في حقوق الزوجيّة، بين الزوجة المسلمة، والزوجة الكتابيّة. ولم تخرج الزوجة الكتابيّة بإختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى (ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها، وجعل بيـــنكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[٩١]، فلها حظها من المودة، ونصيبها من الرحمة، وهي كما هي. وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له.

أيـــن أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الـــزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد في طبيعة البشر؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوي القربى لوالدهم، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الـــذي لم يعهـــد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يُعوِّد القـــلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه، والعقيدة طور من أطوار القلوب، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب، فهو الذي يحاسب عليها، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الجاهل وينصـــح الغـــاوي، ويرشد الضال. لا يكفر بذلك نعمة العشير، ولا يسلك به ســـالك التعسير، ولا بقطع أمل النصير، ولا يخالف سنة الوفاء، ولا يحيد عن شرائع الصدق في الوفاء.

مـــاذا ترى الزوجة الكتابية [نصرانية أو يهودية] لو كانت من أهل النظر العقلي وذهبت مذهبًا يخالف مذهب زوجها؟ أينقص ذلك من مودته لها؟ أو يضعف من شعور الرحمة التي أفاضها الله بينه وبينها؟ فإذا كان المسلم يتعود الاحـــتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه في عقيدته ودينه وملته، ويألف

---

[٩١] سورة الروم ٣٠: آية ٢١.

مخالطـــته وعشرته وولايته ونصرته. أتراه لا يتحمل أن يرى بجواره من يعمل نظـــره في نظـــام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سرّ أو تقرير أمل في علم، أو قاعدة لصناعة؟ إن كان قد يخالف ظاهرًا مما يعتقد أو يميل إلى رأي غير الذي يجـــد؟ أفـــلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف، وهو معه على ما رأيت من الإحتلاف؟[٩٢] [انتهى كلام محمّد عبده].

وهـــنا لا بدّ لي من ذكر تلك العلاقة التي تقوم بين الزوجة المسيحية والزوج المسلم من محبة ومودة ورحمة، ويسكن إليها وتسكن إليه، وهي لباس لـــه وهو لباس لها وكلٌّ جزء منه وجزء فيه، واصرب مثلاً نائلة بنت الفرافصه زوجـــة الخليقة عثمان بن عفان والتي تزوجته سنة ٢٨هـــ \ ٦٥٠م. وكانت نصـــرانية، ومما يروى عنها وعن زواجها وسببه، أن عثمان بن عفان بلغه أن ســـعيد بن العاص وهو على الكوفة تزوج بنت الفرافصة وبلغه نسبها وجمالها فكتب له إن كانت لها أخت فزوجنيها. فبعث سعيد بن العاص إلى الفرافصة يخطـــب إحـــدى بناته على عثمان فأمر الفرافصة ابنه ضبًا فزوجها إياه وكان ضب مسلمًا وكان الفرافصة نصرانيًا وقد أوصاها قبل فراقها بما يحسن فعله إذا صارت بين نساء قريش... فكانت من أحظى النساء عند عثمان.

وعندما هوجم بيت عثمان وتسوَّر المهاجمون داره ومعهم السيوف... فنشـــرت نائلة شعرها، فقال لها عثمان: خذي خمارك فلعمري لدخولهم علي أعظـــم من حرمة شعرك، وأهوى رجل عليه بالسيف، فأكبت عليه نائلة ابنة الفرافصـــة، واتقـــت السيف بيدها وقطع أصابعها وولت تغمر أوراكها وقتل عثمان.

وقالت ترثيه:

---

[٩٢] محمّد عبده: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة، لا. م، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٣، ١٩٨٨ م، ص. ص. ٨٨ — ٩١.

ألا إنَّ خير الناس بعد ثلاثة قتيل النجيبي الذي جاء من مـــصر
ومالي لا أبكي وتبكى قرابتي وقد غيبت(٩٣) عنا فضول أبي عمرو(٩٤)(٩٥)

وهنا قد يسأل سائل: لماذا يبيح الإسلام زواج المسلم بالمسيحية مثلاً ولا يبيح ذلك للمسيحيّ بالزواج من مسلمة؟

الجـــواب: إذا كـــان الإسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليُعلّم البشر التآلف والتعاطف مع التباين في العقيدة والتخالف.

فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض؟

الجواب: أن الرجال قوامون على النساء لأهم أقوى منهن، فليس من العـــدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوي يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويأمره ببغضها وبغض أولاده ووالده إذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة لـــه، وإنما أباح الإسلام ذلك لمن يدين الله بما أمر به من العدل والرحمة، وتنفذ شـــريعته مـــا فرضته عليه من حقوق الزوجة. وهو المسلم، زد على ذلك أن الكـــتابي لا يبيح له دينه التزوج بالمسلمة إلاّ جحودًا لدينه، يخرج به عن كونه كتابيًّا، أو فسوقا عنه وإيثارًا لشهوته عليه.

---

(٩٣) في رواية غيبوا عني.

(٩٤) ابو عمرو كنية الخليفة عثمان.

(٩٥) لويس شيخو: شعراء النصرانية بعد الإسلام، بيروت، دار المشرق، ط ٥، ١٩٩٩ م، ص. ص. ٦٠ — ٦١.

الفصل الثانـــي

الضمان الاجتماعيّ للمسيحيّين في ظلّ الدولة الإسلاميّة

لقد ضمن الإسلام لغير المسلمين في ظلّ دولته، كفالة المعيشة الملائمَة لهم ولمن يعولونه، لأنهم رعية الدولة الإسلامية، وهي مسؤولة عن كل رعاياها انطلاقًـــا مـــن قول الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم (كلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته)[٩٦].

ويحدثـــنا الـــتاريخ أنه عندما قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجابية من أرض دمشق وفي طريقه مرّ بقوم مجذومين من النصارى فأمر أن يُعطوا من الصدقات. وأن يجري عليهم القوت[٩٧].

حتى اليهودي وهو من أهل الكتاب أمر بمساعدته، فعندما مرّ عُمر بن الخطـــاب بيهودي يسأل الناس، بسبب شيخوخته، فقال عمر: ما انصفناه إذا أخذنا منه الجزية شابًا، ثم نخذله عند الهرم[٩٨].

وفي عهـــد خالد بن الوليد القائد المسلم - لنصارى الحيرة في العراق، كتب خالد إلى الخليفة أبي بكر يقول: وجعلت لهم، أي شيخ ضعف عن العمل، أو أصـــابته آفة من الآفات، أو كان غنيًا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين[٩٩].

---

[٩٦] متفق عليه من حديث لعبد الله بن عمر بن الخطاب.

[٩٧] البلاذري: فتوح البلدان، مرجع سابق، ص. ١٧٧.

[٩٨] ابو يوسف: الخراج، مرجع سابق، ص. ١٢٦.

[٩٩] المرجع نفسه، ص. ١٤٤.

من خلال ما ذكر يبدو أن الضمان الاجتماعي في الإسلام تقرر، "باعتباره مـــبدأ عامًا يشمل أبناء المجتمع جميعًا، مسلمين وغير مسلمين، ولا يجوز أن يبقى في المجـــتمع المسلم إنسان محروم من الطعام أو الكسوة أو المأوى أو العلاج، فإن دفـــع الضـــرر عنه واجب ديني، مسلمًا كان أو ذميًا، أليس في هذا كله أيضاً تأمين للعجزة والشيوخ والفقراء"[١٠٠].

[١٠٠] يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مرجع سابق، ص. ١٧.

الفصل الثالث

حماية المسيحيّين من الظلم الداخليّ والخارجيّ

إن النصّ واضح وصريح في الشريعة الإسلامية في حماية المعتدى عليهم. فالمجتمع الإسلامي، "مسؤول بالتضامن عن تنفيذ الشريعة، وتطبيق أحكامها في كل الأمور، ومنها ما يتعلق بغير المسلمين، فإذا قصَّر بعض الناس أو انحرف أو جار وتعدى، وجد في المجتمع من يرده إلى الحق، ويأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، ويقف بجانب المظلوم المعتدى عليه، ولو كان مخالفًا له في الدين"[١٠١].

وإذا شكا المسيحي أو غيره من أهل الكتاب أو لم يشكو ما وقع عليه من ظلم، فالآذان صاغية ومفتوحة لسماع الشكاوى، والاستعداد موجود لإعطاء كل ذي حق حقه، ولو كان الظالم ذو مركز ومقام كبير في المجتمع، وعلى المظلوم أن يشكو إلى الخليفة أو الوالي أو الحاكم أو القاضي... الخ، وحتى ولو كانت القضية بينه وبين أعلى مسؤول في الدولة.

إن المدعي "يجد الضمان لدى القضاء المستقل العادل، الذي له حق محاكمة أي مدعى عليه، ولو كان أكبر رأس في الدولة [الخليفة]، وضمان آخر: عند الفقهاء الذين هم حماة الشريعة، وموجهو الرأي العام. وضمان أعم وأشمل يتمثل في الضمير الإسلامي العام، الذي صنعته عقيدة الإسلام، وتربية الإسلام، وتقاليد الإسلام"[١٠٢].

---

[١٠١] المرجع نفسه، ص. ٢٦.

[١٠٢] المرجع نفسه، ص. ص. ٢٦ — ٢٧.

وإذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا الأمثلة الكثيرة التي تشير إلى التزام المجتمع الإسلاميّ بحماية المسيحيّ أو أي كتابي آخر من كل ظلم يمس حقوقه المقررة، أو حريته المكفولة، أو حرماته المصونة، إنها حماية كاملة متكاملة في الدم والبدن والمال والعرض والدين.

أوّلاً: موقف الحكّام:

١ – عمرو بن العاص والمسيحيّ القبطيّ:

تسابق ابن عمرو بن العاص مع قبطي في مصر فسبقه القبطي، فاستهجن ابن عمرو ذلك، وقال: كيف تسبق ابن الأكرمين؟ وضرب القبطي بالسوط. فما كان من الأب القبطي إلاّ أن توجه إلى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة، وشكا إليه الأمر عما فعله ابن عمرو بن العاص وإلى مصر بابنه.

استدعى الخليفة عمرو بن العاص وابنه، ولما حضر أعطى السوط لابن القبطي، وقال له: اضرب ابن الأكرمين، فلما انتهى من ضربه التفت إليه عمر وقال له: أدرها على صلعة عمرو فإنما ضربك ابنه بسلطانه. فقال القبطي: إنما ضربت من ضربني. ثم التفت عمر إلى عمرو، وقال كلمته المشهورة: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارًا؟

إن من يدقق في دلالات هذه القصة يرى "أن الناس قد شعروا بكرامتهم وإنسانيتهم في ظلّ الإسلام، حتّى أن لطمة يلطمها أحدهم بغير حق، يستنكرها ويستقبحها. وقد كانت تقع آلاف مثل هذه الحادثة، وما هو أكبر منها في عهد الرومان، وغيرهم فلا يحرك بها أحد رأساً، ولكن شعور الفرد بحقه وكرامته في كنف الدولة الإسلامية، جعل المظلوم يركب المشاق، ويتجشم وعثاء السفر الطويل من مصر إلى المدينة المنورة، واثقًا بأن حقه لن يضيع، وأن شكاته ستجد أذنًا صاغية"[١٠٣].

---

[١٠٣] المرجع نفسه، ص. ص. ٢٧ – ٢٨.

٢ – عمرو بن العاص والمرأة المسيحيّة:

شكت إمرأة مسيحيّة من سكان مصر إلى عمر بن الخطاب "أن عمرو بـــن العـــاص (وإلي مصر آنذاك) قد أدخل دارها في المسجد كرهًا عنها، فيهتم خـــليفة المسلمين، ويسأل عمرًا عن ذلك، فيخبره أن المسلمين كثروا، وأصبح المســـجد يضـــيق بهم، وفي جواره دار هذه المرأة. وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ في الثمن ولم ترض. مما اضطر معه عمرو إلى هدم دارها وإدخالها في المسجد ووضع قيمة الدار في بيت مال تأخذه متى شاءت.

ومع أن هذا ما تبيحه القوانين المعاصره، وهي حالة يعذر عليها عمرو على ما صنع، فإن أمير المؤمنين لم يقبل ذلك، وأمر عمرًا أن يهدم البناء الجديد من المسجد، ويعيد إلى المرأة المسيحيّة دارها كما كانت[١٠٤].

٣ – قائد مسلم وراهب مسيحيّ:

شكا أحد رهبان النصارى في مصر إلى الوالي أحمد بن طولون "أحد قواده، لأنه ظلمه وأخذ منه مبلغًا من المال بغير حق، فما كان من ابن طولون إلاّ أن أحضـــر هـــذا القائد وأنبه وأعزره وأخذ منه المال، وردَّه إلى النصراني. وقال له: لو ادعيت عليه أضعاف هذا المبلغ لألزمته به. وفتح بابه لكل متظلم من أهل الذمة، ولو كان المشكو من كبار القواد وموظفي الدولة"[١٠٥].

ثانيًا: موقف الفقهاء ممثليّ الرأي العام الإسلاميّ:

١ – موقف الإمام الأوزاعي:

هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمّد الاوزاعي الدمشقي (ابو عمرو) ولد بـــبغداد عـــام ٨٨ هـــ \ ٧٠٧م، وتوفي ١٥٧ هـــ \ ٧٧٤م، وهو من فقهاء

[١٠٤] فهمي هويدي: مواطنون لاذميون، مرجع سابق، ص. ٦٧.

[١٠٥] يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مرجع سابق، ص. ٢٧.

المحدثـين، أقام بدمشق ثم تحول إلى بيروت، وكان الأوزاعي لا يخاف في الله لومة لائم، بقول الحق.

أ – موقفه من الوالي العباسي صالح بن علي بشأن نصارى جبل لبنان:

لقـد ثار بعض المسيحيّين في جبل لبنان ضدّ الدولة العباسيّة، وأراد الـوالي العباسي صالح بن علي بإجلائهم عن قراهم إلى مناطق أخرى، فكتب الإمام الأوزاعي إلى هذا الوالي رسالة مطولة يستنكر هذا التدبير بشأن من هم مواطـني الدولة العباسية ورعاياها الذين خرجوا يشكون عامل خراج بعلبك، حيث كان صالح بن علي قد وجه من قتل مقاتلتهم، وأقرَّ من بقى منهم على دينهم وردهم إلى قراهم وأجلى قومًا من أهل لبنان.

يقـول الإمام الأوزاعي في رسالته أنه كان اجلاؤهم من جبل لبنان "ممن لم يكن ممالئًا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قـراهم مـا قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديـارهم وأموالهـم، وحكم الله تعالى (ألاَّ تزر وازرة وزر أخرى)[١٠٦]، وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به، وأحق الوصايا أن تحفظ وتُرعى وصية رسول الله صـلى الله عليه وسلم فإنه قال: (من ظلم معاهدًا وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه ثم ذكر كلامًا).

وأضـاف ابن سلام في كتابه الأموال: ومن كانت له حرمة من دمه فله في ماله والعدل عليها مثلها، فإنهم ليسوا بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بـلد في سـعة، ولكنهم أحرار، يرحم محصنهم على الفاحشة، ويحاص نساؤهم نساءنا، من تزوجن منا القسم والطلاق والعدة سواء"[١٠٧].

أمام هذا الموقف من الإمام الاوزاعي ما "كان من العامل العباسي إلاَّ

---

[١٠٦] سورة النجم ٥٣: آية ٣٨.

[١٠٧] البلاذري: فتوح البلدان، مرجع سابق، ص. ١٩٣.

أن كفكف من غربه وكج جماح نفسه وراض حكمه على ما يرضي الشرع كما بينه له الأوزاعي في فتياه. وهكذا فإن هذا الإمام بجرأته في قول الحق وتصديه لسورة الحاكم حتى ردّه إلى الصواب، فقد أنقذ طائفة من مواطنيه النصارى من أن يترددوا في غائلة الجلاء عن أرضهم ومرابع قومهم، مما أتاح لنا اليوم أن نجد بين ظهرانينا أحفادهم يشاطروننا العيش في الوطن الواحد الذي نحوطه جميعًا بالحب والولاء والفداء، وصدق القائل: كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام، وأمره فيهم أعز من أمر السلطان"(١٠٨).

إن الإمــام الأوزاعي حين يتصرف هكذا تصرف، فإن قيمة الإنسان تظــلّ واحدة من الثوابت الأساسيّة في التفكير الإسلامي، التي لا تقبل الانتقاص بأي قدر، وإن قبلت بالإضافة إلى أبعد مدى. ويظلّ أي انتهاك لهذه القيمة بمثابة تصادم وتناقض مباشرين مع دعامة أساسية في التصور الإسلامي بنصه وروحه.

ب – موقفه في قضاء حاجة لمسيحيّ:

تمــتع الإمام الأوزاعي بمجموعة من الصفات الحميدة، فكان شديد التواضع، رحيمًا بالناس، وكان يلبي نداء كل من يسعى لحاجته. نزل في منطقة البقاع عند أسرة مسيحية فرفقوا به فخدموه، فقال لرجل منهم: ألك حاجة؟ فشــكا الــرجل إليه ما ألزم من الخراج، فكتب له إلى عامل الخراج وهو ابن الازرق وكــان غلامًا لأبي جعفر المنصور على الخراج. فأخذ الكتاب إلى هذا العــامل، فقال له: ما حاجاتك؟ فذكرها فقضاها له، فلما انصرف ذكر لزوجته ما فعله الإمام الأوزاعي، فقالت له زوجته: ويحك إهد له هدية [أي للأوزاعي]، وكان صاحب نحل يستخرج العسل منه، فملأ قمقمًا له من نحاس شهدًا وأقبل به إلى الأوزاعي، فلما رآه الأوزاعي ثانية. قال: ألك حاجة؟ قال: فأمر بقبضه وسأله عن خراجه فأخبره أنه قد بقي عليه ثمانية دنانير قال: فتجدها؟ قال: قد عســرت علي في أيامي هذه. قال: فدخل الأوزاعي منــزله وأخرج إليه الدنانير، فقــال: أذهب حتى تؤديها عنك فأبى. قال الأوزاعي: فخذ قمقمك، قال: يا

(١٠٨) طه الولي: عبد الرحمن الأوزاعي، شيخ الاسلام وإمام أهل الشام، بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨، ص ٥٦.

أبـــا عمرو [أي الأوزاعي] وأي شيء ذاك؟ إنما ذاك نحلي، قال: أنت أعلم، إن شـــئت قبلنا منك [أي هديتك من العسل]، وقبلت منا [أي مساعدتك المالية]، وإلا رددنـــا عـــليك كما رددت علينا، فأخذ النصراني الدنانير وأخذ الأوزاعي القمقم(١٠٩).

٢ – موقف ابن تيميه من الأسرى المسيحيّين.

أحمـــد بن تيمية فقية مسلم توفي عام ٧٢٨هـــ \ ١٣٢٨م، حرص عـــلى حماية المسيحيّين وغيرهم من أهل الكتاب، حينما استولى التتار على الشام وأراد مـــلكهم أن يحـــرر الأسرى المسلمين فقط من الأسر، تصدى له الشيخ ابن تـــيمية وأعترض على قراره هذا، مطالبًا بتحرير كلّ الأسرى، المسلمين والنصارى عـــلى حد سواء، موضحًا بأننا لا نرضى إلاّ بافتكاك الأسرى من المسلمين وغير المسلمين لأنهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيرًا، لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملّة. بـــل أوجب الشيخ على المسلمين متابعة القتال حتى تحرير الجميع. فلما رأى ملك التتار ذلك أطلق جميع الأسرى لديه(١١٠)، من مسلمين ومسيحيّين.

٣ – إجلاء الوليد بن يزيد للمسيحيّين من قبرص فقهاء:

أجلى الوليد بن يزيد الخليفة الأموي من كان بقبرص من المسيحيّين، وأرسلهم إلى الشام احتياطاً مخافة حملة الروم، وكان ذلك حماية واحتياطاً كما هي وجهة نظره، فغضبت عليه الفقهاء، وعامة المسلمين، واستعظموا ذلك، مما اضطر الوليد بن يزيد إلى ردهم إلى قبرص، فاستحسن الفقهاء والمسلمون عامة هذا الإجراء، وعدوه من العدل، وذكروه في مناقبه كما يروي البلاذري(١١١).

---

(١٠٩) ابن أبي حاتم: تقدمة المعرفة، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت، ص. ص. ٢١ – ٢١١.

(١١٠) انظر: ١ – أحمد بن حجر العسقلاني: الدور الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج ١، بيروت، دار الجيل، د. ت، ص. ١٤١.

٢ – أحمد بن تيمية الحراني: الرسالة القبرصية، رسالة ابن تيمية إلى سرجواس. ملك قبرص، تحقيق علاء دمج، بيروت، دار ابن حزم، ط ٢، ١٩٩٠م، ص. ٤٠.

(١١١) البلاذري: فتوح البلدان، مرجع سابق، ص. ٢١٤.

الفصل الرابع

في رحاب القضاء الإسلاميّ وعدالته

مـــن مفاخـــر النظام الإسلامي ما منحه من سلطة واستقلال للقضاء، "ففـــي رحـــاب القضـــاء الإسلامي الحق، يجد المظلوم والمغبون - أيًا كان دينه وجنســـه - الضمان والأمان لينتصف من ظالمه، ويأخذ حقه من غاصبه، ولو كان هو أمير المؤمنين بهيبته وسلطانه.

وفي تاريخ القضاء الإسلامي أمثلة، ووقائع كثيرة وقف السلطان، أو الخـــليفة أمام القاضي مدعيًا أو مدعى عليه، وفي كثير منها كان الحكم على الخليفة أو السلطان لصالح فرد من أفراد الشعب، لا حول له ولا طول"[١١٢].

ومن الملاحظ أيضاً أن الدولة الإسلامية خلت "بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم، والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً، وقد كتبوا كثيرًا من كتب القانون، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل - إلى جانب ذلك - مسائل الميراث، وأكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به، وعلى أنه كان يجوز للذمي أن يلجأ إلى المحاكم الإسلامية، ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا، ولذلك ألَّف الجاثليق تيموثيوس Timotheus حوالي عام ٢٠٠هـــ \ ٨٠٠م.

---

[١١٢] يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مرجع سابق، ص. ٢٩.

كتابًا في الإحكام القضائية المسيحية لكي يقطع كل عذر يتعذر به النصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى فقدان القوانين المسيحية[١١٣].

وتقرأ في الخطاب الصادر عن السلطة الإسلامية "والذي صدق تعيين أحـــد البطاركة من طائفة النصارى الملكية، وليأخذهم بما يلزمهم من قوانين شرعتهم. وفي الصلاحيات المكرسة في خطاب آخر موجه إلى بطريرك اليعاقبة تقـــرأ: ويفصـــل بينهم بمقتضى ما يعتقدونه في إنجيلهم، ويمشي أحوالهم على موجبة في تحليلهم وتحريمهم، ويقضي فيما يعتقدونه من الأحكام... وليتحدث عـــن مواريـــثهم إذا ترافعوا إليه. وفي خطاب آخر: وليقمع غاويهم وليسمع دعاويهم"[١١٤].

ومن خلال استقراء ما كتب وما طبق في القضاء الإسلامي، نستطيع القول أن سلطة القانون والقضاء الإسلامي على أهل الكتاب تنحصر في حالات ثلاث[١١٥].

١ – اختلاف الدين (بين طرفي النـــزاع).

٢ – حالة ارتكاب إحدى الجرائم التي تتعلق بالنظام العام.

٣ – لجـــوء أطراف النـــزاع بملء اختيارهم إلى القاضي المسلم للبت بدعاواهم وقبول القاضي بذلك.

يقول سبحانه وتعالى (فإن جاءوك فأحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعـــرض عـــنهم فلن يضروك شيئًا وإن حكمت فأحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين)[١١٦].

إذا استقرأنا هذه الآية الكريمة "يتبين أن القاضي المسلم يمتلك صلاحية

---

(١١٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، مرجع سابق، ص. ٧٢.

(١١٤) حسن الزين: الأوضاع القانونية للنصارى واليهود في الديار الإسلامية، بيروت، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ط ٢، ٢٠٠٠م، ص. ١٢٥.

(١١٥) المرجع نفسه، ص. ١٢٩.

(١١٦) سورة المائده ٥: آية ٤٣.

استنسابية عندما يتوجه إليه فريقا النـــزاع من أهل الذمة لفصل نزاعاتهم، فله أن يقبل ويحكم وله أن يرفض إذا شاء. فإذا رفض هذه الصلاحية تتم إحالتهم عـــلى رؤسائهم الدينيين ليحكموا بينهم بموجب أحكام دينهم. وحالة رفض الدعـــوى هذه تؤدي حكمًا إلى تنحية القانون الإسلامي لتطبق على الدعوى أحكـــام أهل الذمة الدينية. ويروى في هذا المجال أن الإمام علي بن أبي طالب [رضـــي الله عـــنه] كتب ذات يوم إلى محمّد بن أبي بكر، حول قضية مسلم أرتكـــب جريمة الزنا مع امرأة من أهل الذمة، طالبًا إنزال عقوبة الحدِّ بالمسلم وإحالـــة المـــرأة إلى سلطات قومها الدينية لتعاقب حسب شرائع دينها، كما يروي السرخسي أن الإمام علي بن أبي طالب (ع) والخليفة عمر بن الخطاب (رض) طلـــبًا بمناســـبة اثنين من أهل الذمة، أرتكبا جريمة الزنا، أن يرسلا إلى أتباع دينهما ليحاكما وفقًا لأحكام قانونهم الديني وعاداقم"[١١٧].

ومن الأمثلة على عدالة القضاء الإسلامي واستقلاليته، ومثول أكبر سلطة في الدولة أمامه ما يروي أنه "سقطت درع أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عـــنه، فوجدهـــا عند رجل نصراني، فاختصم إلى القاضي شريح، قال علي: الـــدرع درعـــي ولم أبع ولم أهب، فسأل القاضي ذلك النصراني فيما يقول أمير المؤمـــنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالـــتفت شـــريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين هل لك من بينه؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح ما لي بينة، وقضى شريح للنصراني بالدرع، لأنه صاحب اليد عـــليها، ولم تقـــم بينة على خلاف ذلك، فأخذها هذا الرجل ومضى، ولم يمش خطـــوات، حتى عاد يقول: أما أني أشهد هذه أحكام أنبياء!، أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي لي عليه! أشهد أن لا! له الله وأن محمّدًا رسول الله! الدرع درعـــك يا أمير المؤمنين. اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الأورق. فقال علي رضي الله عنه. أما إذا أسلمت فهي لك[١١٨].

---

(١١٧) حسن الزين: الأوضاع القانونية للنصارى واليهود في الديار الإسلامية، مرجع سابق، ص. ١٣٦.

(١١٨) يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلاميّ، ص. ٢٩، مثلاً عن: ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٨، ص. ص. ٤ – ٥.

وها هو الخليفة عمر بن عبد العزيز، وفد إليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قتيبة قائد الجيش الإسلامي فيها دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين غدرًا بغير حق. فكتب عمر بن عبد العزيز (الخليفة الأموي) إلى عاملة هناك أن ينصب لهم قاضيًا ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين من سمرقند أخرجوا. فنصب لهم الوالي (جميع بن حاضر الباجي) قاضيًا ينظر في شكواهم، فحكم القاضي وهو مسلم، بإخراج المسلمين، على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلاميّ بعد ذلك، وينابذهم وفقًا لمبادىء الحرب الإسلاميّة، حتى يكون أهل سمرقند على استعداد لقتال المسلمين، فلا يؤخذوا بغتة. فلما رأى ذلك أهل سمرقند، رأوا ما لا مثيل له في التاريخ من عدالة تنفذها الدولة على جيشها وقائدها! قالوا: هذه أمة لا تحارب وإنما حكمها رحمة ونعمة. فرضوا ببقاء الجيش الإسلامي، وأقروا أن يقيم المسلمون بين أظهرهم"[١١٩].

---

[١١٩] مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص. ١٢٢، وأيضًا محمود الشربيني: القضاء في الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ط ٢، ١٩٩٩ م، ص. ١٨٩.

الفصل الخامس

كبار المسؤولين في الدولة الإسلاميّة ورجال الدين المسيحيّ

انطلاقًا من إيمان المسلمين بالعيش والحياة المشتركة الإسلاميّة والمسيحيّة، ومن تعاليم الإسلام، كانت لكبار المسؤولين في الدولة الإسلامية ومنهم الخلفاء، لقاءات مع رجال الدين المسيحيّين، ومرافقة في السفر، وحوارات فرديّة وجماعيّة، وعقد مؤتمرات، وغيرها.

فهذا الخليفة العباسي المهدي يستدعي الجاثليق طيماثاوس في أكثر الأيام... وكانت له مباحث يطول شرحها.

يروي طيماثاوس نفسه بعض ما جرى في هذه المناظرات في رسائله إلى صديقه سرجس.

ففي بداية وقائع مناظرات اليوم الثاني، كما وردت في النص السرياني يُسرُّ الجاثليق إلى صديقه بأن المقابلات مع الخليفة كانت تجري باستمرار، وكانت حينًا في شؤون الدولة، وحينًا لإرواء الظمأ إلى الحكمة الذي كان يشتعل في صدر الخليفة، فهو ودود ويحب تعلم الحكمة متى وجدها عند غيره[١٢٠].

وكان الخليفة يصطحب في أسفاره أحيانًا طيماثاوس جاثليق النساطرة [هذا]، فهل كان يعقل ذلك للاستماع بحديثه العلمي أم للتبرك به؟ أم لاستخدامه

---

[١٢٠] جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة حسني زينة، بيروت، دار المشرق، ط ١، ١٩٩٠، ص. ٧٥.

وسـيطاً في تعامله مع سكان الأرض من النصارى الذين يجدهم في طريقهم أو يـرجوا استسلامهم السريع؟ وها هو في السابع من حزيران (٧٩٩م / ١٨٣هـ) اسـتجاب الجاثليق لأمر الخليفة هارون الرشيد باللحاق به إلى الأراضي البيزنطية، وقد سمح له باستعمال مطايا البريد الملكي[١٢١] ليعجل في الوصول[١٢٢].

وكانت الأكثريّة من النصارى في العراق من النساطرة فنال بطريركهم المعروف بالجاثليق حق السكنى في بغداد وجعلها مقرًا لكرسيه.

وقـد نشـأ حول مقر الجاثليق ببغداد المدعو بدير الروم حي للنصارى عرف بدار الروم. وكان للجاثليق سلطة روحية على سبع أبرشيات منها أبرشية البصـرة وأبرشـية الموصل وأبرشية نصيبين وفي كل منها مطران وأسقفان أو ثلاثة. وكان المرشح المنتخب لمنصب الجثلقة يتسلم من الخليفة براءة تسند إليه الزعامة الرسمية على نصارى الدولة الإسلاميّة[١٢٣].

لقد تمتع النصارى في بغداد بحرية كاملة من الناحية الدينيّة وخير مثال على هذه الحريّة هو اختيارهم لرؤسائهم الروحيّين بدون تدخل في عهد الخليفة العباسي المستظهر بالله، ففي سنة (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م)، خلا كرسي الفطركة من مدبر وراع فوقع الإجماع على ماركيخيا الجاثليق، حيث عقدت له الفطركة في المدائن، وكان يومًا مشهودًا عم السرور فيه الناس.

وتتجلى الحريّة الدينيّة التي كان يتمتع بها نصارى بغداد في المناسبات الديـنيّة وخاصة يوم تنصيب الفطرك. ففي سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م، عندما اسـتناح مكيخيا وقع الاختيار الكلي على إيليا الثاني فطركًا بالمدائن، وحضر تنصيبه مطران نصيبين، ومطران الري وحلوان، وأسقف عكبرى، وأسقف القصر، والـنهراويات، وأسـقف أصـفهان، وأسقف أدرنة، وأسقف بشندر، وأسقف الرومي، والجموع الكثيرة من قسان وشمامسة ووزراء ورؤساء ومؤمنين، وحضر

---

[١٢١] الأصح ان يقال البريد الخليفي.

[١٢٢] المرجع نفسه، ص. ٩٠.

[١٢٣] فيليب حتي واخرون: تاريخ العرب (مطول)، ج ١، مرجع سابق، ص. ص. ٤٣٥ — ٤٣٦.

الأجل أمين الدولة فوقف الملك رئيس الكفاة والحكماء أبو الحسين هبة الله بن صاعد بن ابراهيم الطيب الغياثي المعروف بابن التلميذ، وكان يومًا مشهودًا، واستقبله رجال الدين بالصليب والإنجيل والشموع والبخور والصلاة، وفرشوا الطريق أمامه مثل جارى العادة بالبسط والثياب وعملوا القباب، وأخيرًا عاد بالجموع إلى بغداد، وجلسن في القلاية بدار الروم، وقام بتعيين الرؤساء الروحيين على رعايا النصارى في مختلف مناطق السلطنة السلجوقية. وكان حكمه بالحق والنصف بين القوي والضعيف والغني والفقير، وكان مدة رئاسته إحدى وعشرين سنة وسبعة أشهر وعشرين يومًا[١٢٤].

وفي مصر كان البطريرك هو الذي يضع القوانين الكنسية، وكان يخاطب ببعض ألقاب التشريف والتكريم، فمثلاً يقال له: البطريرك الجليل، القديس، الخاشع، قدوة النصرانية[١٢٥].

وكان أمرًا ضروريًا موافقة أمراء مصر وخلفائها على البطرك الجديد لاتمام مراسم تعيينه. ومن كان يكتب له توقيع أو سجل، تتضمن موافقة والي مصر أو خليفتها على إقامته بطركًا، ويوصيه فيه باتباع العدل والانصاف بين رعيته من القبط ومراعاة أمور الكنائس والأساقفة والقسس والرهبان وأديرهم، ولا يعترض عليه أحد في شيء[١٢٦].

وها هو الخليفة المستنصر في الأندلس (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) يجلس في ديوانه ومن حوله كبار نصارى الأندلس المعاهدين، ومنهم الوليد ابن الخيزران قاضي نصارى قرطبة وعبد الله بن القاسم مطران طليطلة[١٢٧].

وها هو في ظلّ الدولة الإسلامية يحدثنا ابن النديم عن بعثة كنسية

---

(١٢٤) محمّد حسن شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ٤٦٧ — ٥١٢ هـ، بيروت، دار النفائس، ط ١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص.ص. ١٦٨ — ١٧١.

(١٢٥) فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، ج ٢، لا. م، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ٢٠٠٠ م، ص. ٢٤٣.

(١٢٦) المرجع نفسه، ص. ٣٤٤.

(١٢٧) المقري: نفح الطيب، ج ١، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، دار المأمون بمصر، د. ت، ص. ٢٥٢.

تذهب إلى الصين للتبشير، أو لشؤون رعوية، فيقول: حكى راهب نجراني عاد مـــن بلد الصين في سنة سبع وسبعين وثلثمائة، هذا الرجل من أهل نجران، أنفذه الجاثليق منذ نحو سبع سنين إلى بلد الصين، وأنفذ معه خمسة أناس من النصارى، ممن يقوم بأمر الدين، فعاد من الجماعة هذا الراهب وآخر بعد ست سنين، فلقيته بـــدار الـــروم وراء البيعة، فرأيت رجلاً شابًا حسن الهيئة قليل الكلام، إلاّ أن يُســـأل، فسألته عما خرج فيه، وما السبب في إبطائه طول هذه المدة، فذكر أمـــورًا لحقـــته في الطريق عاقته، وأن النصارى الذين كانوا ببلد الصين فنوا وهلكوا بأسباب، وأنه لم يبق في جميع البلاد إلا رجل واحد، وذكر أنه كانت لهـــم بيعة خربت. قال: فلم أر من أقوم لهم بدينهم عُدت في أقل من المدة التي مضيت فيها(١٢٨).

وكـــانت لغير المسلمين ومنهم المسيحيّون "الحريّة التامة في كل شيء حـــتى في عقـــد المؤتمرات كمؤتمر اشبيلية في سنة ١٦٦هـــ / ٧٨٢م، ومؤتمر قرطبة سنة ٢٣٨هـــ / ٨٥٢م"(١٢٩).

وجرت مساجلات وحوارات دينيّة في ظلّ الدولة الإسلاميّة "ففي مطلع القـــرن الثالث الهجري عقد في مدينة (مرو) حوار بين الأديان من غير مجاملات، ومراهنات، جمع هذا الحوار الجاثليق كبير النصارى، ورأس الجالوت زعيم اليهود، والهـــريذ الأكـــبر ممـــثل الزرادشتية، وعمران الصابئ قطب الصابئة، والفيلسوف قسطاس الرومي، وجمع من المتكلمين.

ولعلنا نذكر القاضي ابو بكر محمّد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـــ / ١٠١٣م) ومناظرته في عاصمة الروم البيزنطيين (في القسطنطينية، مع علماء النصرانية بطاركة، ورهبان) وبين يدي قيصرها(١٣٠).

إن مـــثل هذا التعايش، وهذه الحريّة الدينيّة التي تمتع بها المسيحيّون في

---

(١٢٨) ابن النديم: الفهرست، القاهرة، مطبعة الاستقامة، د. ت، ص ٥٠٤.

(١٢٩) عبد الرحمن علي الحجي: الحضارة الإسلاميّة في الأندلس، مرجع سابق، ص ٣.

(١٣٠) بسام داود عجك: الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، مرجع سابق، ص ١٧٧.

ظلّ الدولة الإسلامية، دفعت البطريرك المسيحي في مرو الذي كان يطلق عليه بطريـــرك فـــارس واسمه سيمون ليقول ما يلي: إن العرب الذين أورثهم الله ملك الأرض لا يهاجمون الدين المسيحي أبدًا، بل على العكس من ذلك انهم يساعدونا في دينـــنا ويحترمون إلهنا وقديسينا ويهبون العطايا لكنائسنا وأديرتنا [هذا البطريرك كان يعيش في حكم الخليفة الثالث عثمان بن عفان](١٣١).

ولتأكيد هذه الحريّة الدينيّة التي تمتع بها المسيحيّون، وعاشها المسلمون مع أهل الكتاب، نذكر بعض هذه الحوارات:

أوّلاً: الحوارات الفرديّة الإسلاميّة والمسيحيّة:

تعتبر الحوارات الفرديّة الإسلاميّة المسيحيّة "من أكثر ما سجله تاريخ الجـــدل العقائدي، لأنه نشأ على الاحتكاك المباشر بين المسلمين والمسيحيّين. وكـــان يتم بين كل طبقات المجتمع، بدءًا بالفرد من عامة الناس، ووصولاً إلى العـــالم المتخصص وإلى رجل الدولة حيث كان الحوار ممارسة يومية، يعيشها المسلمون والمسيحيّون على السواء(١٣٢).

ومن هذا الحوارات:

١ ـ الحوار المنسوب إلى سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنه.

٢ ـ حـــوار سيدنا خالد بن الوليد مع جَرجَة مقدم عسكر الروم في معركة اليرموك.

٣ ـ حوار الخليفة العباسي المهدي والجاثليق طيماثاوس.

٤ ـ الحوار بين هارون الرشيد (ت ١٩٣ هـــ / ٨٠٩ م) وطبيبه الخاص.

٥ ـ الحوار بين العتابي (ت ٢٢٠ هـــ / ٨٣٥ م) وابن فروة المسيحيّ.

٦ ـ الحوار بين ابن الطلاع (ت ٤٩٧ هـــ / ١١٠٤ م) ونصراني في قرطبة.

---

(١٣١) سيد أمير علي: روح الإسلام، ترجمة عمر الديراوي، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٧، ١٩٨١ م، ص ٢٦٥.

(١٣٢) بسام داود عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، مرجع سابق، ص ١٦٨.

٧ – حوارات المسعودي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) مع الفيلسوف أبي زكريا النصراني.

٨ – الحوار بين القاضي الباقلاني وبين ملك الروم في القسطنطينية.

٩ – حوار ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م) مع قسيس من مراكش.

١٠ – الحوار بين الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ / ١٢١٠م) وقسيس في خوارزم.

ثانيًا: الحوارات الجماعيّة الإسلاميّة المسيحيّة:

هذه الحوارات هي أشبه ما تكون بالندوات والمؤتمرات وحلقات البحث في أيامنا هذه وتعتبر "من أهم الحوارات التاريخيّة بين المسلمين والمسيحيّين، وذلك لعدة أسباب منها:

– نوعية المتحاورين من حيث المكانة العلميّة والتعمق الكثير في أديانهم.

– الجو الذي تقوم فيه هذه الحوارات، حيث يمكن أن يتجمع عدد كبير من العلماء والمفكرين من كلا الطرفين، وأحيانًا تكون هذه الحوارات على مرأى ومسمع الجماهير المسلمة والمسيحية"[١٣٣].

ونذكر من هذه الحوارات الجماعيّة[١٣٤].

١ – الحوارات التي كانت تجري في مجلس الخليفتين الأمويين معاوية بن أبي سقيان (ت ٦٠هـ / ٦٨٠م)، وعبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ / ٧٨٥ م).

٢ – حوار شيخ مسلم وبعض المسيحيّين في القسطنطينية في العهد الأموي.

---

[١٣٣] المرجع السابق نفسه، ص ١٦٤.

[١٣٤] المرجع السابق نفسه، ص ١٦٤.

٣ - حوار بين علي الرضا (ت ٢٠٣هـ / ٨١٨م) وجاثليق في مجلس الخليفة العباسي المأمون.

٤ - الحـــوار بين أبي يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ / ٨٧٥م) وقسيس ورهبانه في أحد الأديرة بالشام.

٥ - حـــوار بين أبي الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ / ٩٣٦م) وبعض علماء المسلمين من جهة وفيلسوف نصراني في بغداد.

٦ - حـــوارات في عهد الخليفة الفاطمي المعزلدين الله (ت ٣٦٥هـ / ٩٧٥م).

٧ - حوارات في عهد ملوك التتار.

٨ - حـــوارات أمام جنكيزخان (ت ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧م) مؤسس الدولة المغولية.

ثالثًا: الرسائل المتبادلة بين المسلمين والمسيحيّين:

تعتبر المراسلة من أهم الحوارات بين المسلمين والمسيحيّين وذلك لعدة أسباب:

١ - طبيعة كتابة الرسالة بشكل عام، حيث أنها تؤهل الإنسان لكي يعـــبّر عن أفكاره، بكل وضوح، بعيدًا عن المؤثرات الخارجيّة، التي تكون في عمليّة الحوار المباشر.

٢ - كـــتابة الرسالة تساعد الإنسان على التروي في عرض أفكاره، وترتيب حججه، ومراجعة طروحاته.

٣ - الاختصـــار التي تُمليه طبيعة كتابة الرسالة، الأمر الذي يسهل على قارئها فهم الفكرة المعروضة باختصار، والوصول مباشرة إلى مراد الطرف الآخر للحوار، إلاّ أنه قد جهة أخرى، فإن الرسائل تعتبر من ضمن الحوارات الفرديّة التي قد لا يطلع عليها إلا أصحابها[١٣٥].

---

(١٣٥) المرجع نفسه، ص ١٩٦.

ومن أهم هذه الرسائل[١٣٦]:

١ – رسالة الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى بعض ملوك وأمراء بلاد ما وراء النهر (الهند).

٢ – رسالة عبد الله بن اسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن يعقوب الكندي، في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي.

٣ – رسالة الحسن بن أيوب (ت ٣٧٨هـ / ٩٨٨م) إلى أخيه علي بن أيوب المسيحيّ.

٤ – رسالة القاضي أبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ / ١٠٨١م) ردّا على رسالة راهب فرنسي.

٥ – رسالة أبي عبيدة الخزرجي (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٧م) إلى قسيس مدينة طليطلة.

٦ – رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م) إلى سرجواس ملك قبرص وهي ما تسمى الرسالة القبرصية.

٧ – رسالة الشيخ الحراني (ت ٦٣٨هـ / ١٢٤١م) إلى أسقف مدينة طركونة في الأندلس.

هذه الرسالة تعتبر "أقدم دعوة إلى ما يسمى حاليًا، التآخي والتصافي بين الأديان الإبراهيمية: اليهودية، والمسيحيّة، والإسلام... إنها تدعو إلى التصافي والتواصل، في القرب والبعاد، والتخلص من نكر التباغض والعناد، وتندب إلى الأخذ بسنة المتحابين، والمعذرة لخلق الله أجمعين، وهي الحكمة الفاضلة التي أسسها حكم الإنجيل، حسب ما ورد في الرسالة"[١٣٧].

هذه الحوارات التي ذكرتها يحتاج بعضها إلى دراسة معمّقة لجهة المضمون ودلالاته، ثم إن هذه الحوارات هي نتاج ممارسة يومية لحياة مشتركة

[١٣٦] المرجع نفسه، ص. ص ١٩٦ – ٢١٦.

[١٣٧] بسام داود عجك: الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، مرجع سابق، ص ٢١٦.

عاشها المسلمون والمسيحيّون في ظلّ الدولة الإسلامية، كل يبين عقيدته وشريعته، ويدافع عنها بالأدلة التي يقدمها، وقد يفتخر بعض المحاورين بدينه ويمتدح عقيدته وشريعته، وما كان هذا ليحدث لولا ما في الإسلام والمسيحية من نقاط تلاق، وحتّى نقاط إختلاف، في مجتمع تعددي، يقول سبحانه وتعالى (ولو شاء ربكَ لآمن من في الأرض كلهم جميعًا، أفأنت تكره الناس حتّى يكونوا مؤمنين)[١٣٨] ، ويقول سبحانه وتعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم، وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين)[١٣٩].

وينطلق المتحاورون من ضرورة معرفة كل منهما الآخر "فالجهل عدو الحوار وعدو السلام، فكيف بالتجهيل أو التجاهل؟ واحترام الآخر (مسلمًا أو مسيحيًّا) لا يكون إلاّ على أساس معرفته حق المعرفة، فالمعرفة طريق المشاركة في صنع المستقبل"[١٤٠].

ومما لا شكّ فيه أن المسلم إذا انطلق من آداب الحوار التي رسمها له القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، سيكون هناك مناخ هادىء لتفكير مستقل تعمل الدولة على تأمينه، ويساهم فيه الأفراد والجماعات في المجتمع، بحيث يقوم كل هذا على أساس معرفة الآخر كما هو، والاحترام المتبادل بين الأطراف المتحاورة.

وهنا نجد أنفسنا أمام السؤال التالي:

ما هو منهج الحوار الإسلاميّ والمسيحيّ الذي عَلَّم الإسلام أتباعه العمل به من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؟

---

[١٣٨] سورة يونس ١٠: آية ٩٩.

[١٣٩] سورة الروم ٣٠: آية ٢٢.

[١٤٠] سعود المولى: الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة، بيروت، دار المنهل اللبناني، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م، ص ٤١.

الفصل السادس

منهج الحوار الإسلاميّ المسيحيّ من منظور القرآن الكريم والسنة النبوية

العناصر التي ينبغي توافرها في قضية الحوار عامّة:

أوّلاً: شخصيّة الإنسان المحاور المسلم:

١ - الإيمان العميق بـــمبادئ الإسلام وأهدافه:

يطـــلب من المسلم المحاور أن يكون مؤمنًا بالله ورسوله وكتابه، وأن يتقي الله، ويتواضع لله، ويثق بنصره، ويعتزَّ بالحق ويتشبث به.

كذلـــك على المحاور أن يتأدب بأخلاق الإسلام، ويتأسى بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الكرام في الحوار، ومخاطبة الناس من منطلق الإيمان بوحدة التنوّع، يقول صلى الله عليه وسلم "كلكم لآدم وآدم من تراب".

٢ ـ العلم الواسع بالإسلام وأحكامه والمسيحيّة ومبادئها:

لا يجـــوز لـــلمحاور المسلم أن يحاور المسيحيّ إذا لم يكن على علم واســـع أوّلاً بالدين الإسلاميّ، وثانيًا بالدين المسيحيّ، ومطلوب منه أن يكون عالمًا بالعصر، فقيهًا بقضاياه ومشاكله، ومنفتح العقل. وعندما أقف عند معرفة المحاور المسلم للمسيحيّة نجد معرفة بعضهم "عن المسيحيّة تكاد تنحصر بالنص القرآني، أما دراسة اللاهوت المسيحيّ وفلسفته فكانت في معظم الأحيان غائبة

عن ثقافة المحاور المسلم"[١٤١]. ولا يجوز أن لا يعرف المحاور الآخر لأن الجهل "عدو الحوار وعدو السلام، فاحترام الآخر لا يكون إلاّ على أساس معرفته حق المعرفة، فالمعرفة طريق المشاركة في صنع المستقبل"[١٤٢].

٣ – الحكمة الشاملة:

إن من يعود إلى القرآن الكريم يجد كلمة الحكمة ترد في مواضع كثيرة فيـــه، ويرى أن كثيرًا من الأنبياء تمتعوا بالحكمة ومنهم نبي الله داود، وعيسى عـــليه السلام، يقول سبحانه وتعالى (ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون)[١٤٣]. ومن بين عباد الله الصالحين الذين اختصهم الله بالحكمة لقمان الحكيم.

إن من يريد حوارًا هادفًا جادًا عليه أن يكون حكيمًا، لأن "الحكمة هي جماع العلم والمعرفة، ومن عناصرها الفطنة، وحسن الفهم، وعمق الوعي، وسعة الإدراك، والرشد، والتنمية، والقصد، والاعتدال"[١٤٤].

يقول سبحانه وتعالى (يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا)[١٤٥].

٤ – تأمين المناخ المناسب للحريّة الفكريّة:

ينبغي أن يؤمن المناخ الفكري الهادىء للحوار وذلك من خلال، إقامة جســـور مــــن الـــثقة بين الأطراف المتحاورة، والإحترام المتبادل، والبعد عن

---

(١٤١) محمّد السماك: الحوار المسيحي الإسلامي، وجهة نظر إسلامية، مرايا متقابلة، مركز الدراسات المسيحية الإسلاميّة، جامعة البلمند، ١٩٩٧ م، ص ١٥٧.

(١٤٢) سعود المولى: الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة، مرجع سابق، ص ٤١.

(١٤٣) سورة الزخرف ٤٣: آية ٦٣.

(١٤٤) عبد العزيز بن عثمان التويجري: الحوار من أجل التعايش، القاهرة، بيروت، دار الشروق، ط ١، ١٤١٩ هـــ / ١٩٩٨ م، ص ١٥.

(١٤٥) سورة البقرة ٢: آية ٢٦٩.

الارهاب الفكريّ والنفسيّ، ونبذ التعصب والكراهية، إنها الصورة العامة التي يعطيها المجتمع عن العلاقات السائدة بين أفراده.

يقول سبحانه وتعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)[١٤٦].

فالتوجيه القرآني هنا "يرقى من مستوى نبذ التعصب والكراهية إلى مقام أرفع، وهو البر بالناس كافة، ومعاملتهم بالقسط - وهو العدل - جميعًا. والبر هو الإحسان بكل دلالاته الأخلاقيّة واللغويّة"[١٤٧]، والسعي إلى نبذ كل مظاهر ثقافة الكراهية بين الأديان، والتعصب بين أتباعها.

ويمكن أن نرى هذه النماذج بوضوح في القرآن الكريم، ومن خلال سيرة النبي محمّد صلى الله عليه وسلم "فالقرآن يعرض أمرًا واضحًا في الحوار بين النبي محمّد صلى الله عليه وسلم وبين الأطراف الأخرى التي يحاورها خلال مسيرة الدعوة، وفي هذا الأمر يقول: إن الرسول بشّر مثل سائر البشر و لم يتفضل عليهم إلاّ بتلك الرسالة الربانية، ومهمة التبليغ والتوضيح وحسب. فبهذا العرض تزول كل مظاهر السيطرة أو التعالي، أو عمليّة الإحتواء بسبب الصفات أو الألقاب أو الايحاءات التي قد تعرض من قبل المحاورة لأجل الهيمنة على الطرف المقابل"[١٤٨]. وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى موضحًا هذه النقطة (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد)[١٤٩].

فإذا كان مطلوب من الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم أن لا يمارس هيمنة ولا سلطة ولا تكبرًا على المدعويين، بل يترك لهم الحريّة والاستقلالية في التفكير، فمن باب أولى أن يتطبق هذا على المسلم الذي يحاور الآخرين.

---

(١٤٦) سورة الممتحنة، ٦٠ آية ٨.

(١٤٧) عبد العزيز بن عثمان التويجري: الحوار من أجل التعايش، مرجع سابق، ص ١٥.

(١٤٨) بسام داود عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، مرجع سابق، ص ١٥١.

(١٤٩) سورة الكهف ١٨: آية ١١٠.

ثانيًا: شخصية الإنسان المحاور غير المسلم:

يطلب إلى المحاور غير المسلم، أن يكون لديه الرغبة الواضحة في الحوار، ونشدان الحقيقة، والاعتراف بالحق إذا ظهر، وعدم المعاندة، وأن يكون على علم بالإسلام، وبالأديان الأخرى، فالحقيقة ينبغى أن تنشد ويبحث عنها ويُسعى إليها، وأن يقصد ما فيه الصالح العام من شتى الطرق وبمختلف الوسائل التي تحقق مصالح العباد والبلاد.

وأن يكون الحوار صيغة جامعة، وأسلوبًا من أساليب التقارب والتجاذب والتفاعل، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

ثالثًا: إيجاد المناخ الهادىء للتفكير المستقل:

يحتاج المحاورون إلى بيئة هادئة بعيدة عن كل المؤثرات الداخليّة والخارجيّة، وخصوصاً ما يحمله كل طرف تجاه الآخر من انفعالات، ومن صورة مسبقة مرسومة في الإذهان لا يحيدون عنها.

فالحوار يتطلب الإحترام المتبادل، والثقة بالآخر، ونشدان الحقيقة، والانصاف والاعتدال.

رابعًا: العلم بموضوعات الحوار:

لا بدّ لكل من يحاور أن يكون على معرفة بموضوعات الحوار، لأن الجهل وعدم المعرفة قد يؤدي إلى مهاترات وشتائم ليغطي فيها كل واحد عجزه وجهله.

وينبغي أن تكون موضوعات الحوار حول كل ما فيه مصلحة الفرد والجماعة، "وحينما يتعلق الأمر بالحوار الإسلاميّ المسيحيّ لا ينبغي الدخول في مناقشة مسائل الاعتقاد على حساب قضايا عمليّة تقود معالجتها بالنفع والفائدة على الطرفين، لا تهربًا، ولكن لأن مثل هذه المناقشة لا فائدة فيها وهي أقرب إلى الجدل العقيم واللجاج السقيم، ولذلك فإن من هذه القضايا التي يجب التركيز عليها، التعاون من أجل إقرار المبادئ والتعاليم الدينيّة المشتركة التي

تحث على إحترام الحياة الإنسانيّة، وعلى مراعاة حرمة الإنسان، وعلى السعي في الأرض من أجل الخير والأمن والسلام، وعلى محاربة الإلحاد والرذيلة والفساد والظلم والطغيان، وعلى دعوة الناس إلى قيم المحبة والتسامح والإخاء الإنساني. وهذه مساحات واسعة للعمل المشترك من أجل الإنسان، وفي خدمة البشريّة، وإنقاذ العالم من الشرور والموبقات"(١٥٠).

المنهج الحواري في ضوء القرآن والسنّة:

يقوم الحوار الإسلامي المسيحي على مجموعة من المبادئ التي ينبغي التقيد بها، والسير على نهجها إنطلاقًا من تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية وهي كما يلي:

المبدأ الأوّل: الدعوة إلى الله تعالى:

يرتكز الحوار الإسلامي المسيحي، وتقوم مشروعيته من الكتاب والسنة، على مبدأ إسلامي واضح هو مبدأ الدعوة إلى الله تعالى ودين الإسلام.

ويعتبر الحوار التطبيق والممارسة العمليّة لمبدأ الدعوة الإسلاميّة، مع القريب والبعيد، والعدو والصديق، ومع الناس كافة، ومع أصحاب العقائد والتيارات الفكريّة على اختلافها.

يقول سبحانه وتعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون)(١٥١).

ويقول تعالى (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال انني من المسلمين)(١٥٢)

فالمهمة الأولى في قضية الدعوة إلى الله تعالى هي "عرض الإسلام بجوهره

---

(١٥٠) عبد العزيز عثمان التويجري: الحوار من أجل التعايش، مرجع سابق، ص ٢٠.

(١٥١) سورة آل عمران ٣: آية ١٠٤.

(١٥٢) سورة فصلت ٤١: آية ٣٣.

الحقيقي، وثوبه القشيب، ووضوح رسالته، وإبراز جماله، وشموله لكل جوانب الحيـــاة الإنســـانيّة الخاصة والعامّة، وصلاحيّة رسالته لكل زمان ومكان، وأن رسالة الإسلام ما جاءت إلاّ لتسعد الإنسانيّة جمعاء، وتوضح لهم سبل النجاة، والأمن، والاطمئنان، والعيش بسلام ومحبة وإخاء"[١٥٣].

يقـــول سبحانه وتعالى عن مهمة الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[١٥٤].

المبدأ الثانـــي: الحكمة والموعظة الحسنة:

إذا أردت أن تحـــاور إنسانًا أو طرفًا ما، فقد تلجأ إلى العنف واستخدام أقســـى الأســـاليب، وأشـــد الكلمات مع خصمك، مجرحًا، مسفهًا، باحثًا عن الأخطاء، غير محترم لإنسان أمامك في شعوره وعاطفته وعقيدته ومقدساته، فمثل هـــذه الطريقة لن توصل إلى نتيجة، بل ستزيد الأحقاد والبغضاء، وستكون مجال تباعد لا تقارب.

يقـــول ســـبحانه وتعـــالى (ولو كنت فظاً غليظ القول لا نفضوا من حولـــك)[١٥٥] ، ويقـــول النبي محمّد صلى الله عليه وسلم "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"[١٥٦].

أما حين يلجأ المحاور إلى حوار هادىء، رصين، فيه لين ومحبة، وكلام طيب، ومخاطبة لفطرة الإنسان ووجدانه، بعيدًا عن العنف والصدام، فهذا بحد ذاتـــه "تعبير عن نضج فكري ووعي حضاري، وتصميم على البحث عن أقوم السبل لتجنب الخسائر، ولتفادي المخاطر، وللتغلب على المشكلات، ولمعالجة الأزمات وإدارتها، يعقل منفتح، وبضمير حي"[١٥٧].

---

[١٥٣] بسام داود عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، مرجع سابق، ص ١٥٥.

[١٥٤] سورة الأنبياء ٢١: آية ١٠٧.

[١٥٥] سورة آل عمران ٣: آية ١٥٩.

[١٥٦] رواه البخاري في الصحيح.

[١٥٧] رواه البخاري في الصحيح.

فالإســـلام في هذا المجال له مبادئ ومواقف ورؤى حيث أن تعاليم "الدين الحنيف تحث على التعاون من أجل كل ما فيه الخير والحق والفضيلة والشرف والعزة والكرامة، وفي سبيل تحقيق كل ما فيه السعادة لبني البشر كافة".[١٥٨].

مقومات الحوار الهادئ البعيد عن العنف

الحـــوار الهـــادىء الذي ينبذ العنف، وينادي به الإسلام يرتكز على النقاط التالية:

١ – الحوار بالتي هي أحسن وبالموعظة الحسنة:

إن الموعظة الحسنة تعتمد على وسائل وأساليب، تساعد من يحاور أن يقبض على نواصي الأنفس، وتحريك العواطف والانفعالات الإنسانيّة، وتوجيهها إلى طـــريق الحق والخير. إنها "تلين القلوب القاسية بقوة تأثيرها، فتجعلها طيعة للاستجابة إلى الحق، وتصرف عنها كثيرًا من عقد العناد والكبر والحسد وسائر إنحرافات النفس والفكر، وذلك لأن الأنفس إذا استحسنت أو استعذبت شيئًا مـــن الأشياء مالت إليه، وانجذبت نحوه، وانفعلت به انفعال مسرة، ومع الميل والمســـرة يتولد الحب، وبالحب تنحل معظم العقد، وأهمها العقد التي تنشأ عن الـــنفور والكـــراهية وعدم الإلف، ومتى انحلت العقد النفسيّة عاد الإنسان إلى فطرته الصافية التي تقبل الحق وتستجيب له"[١٥٩].

والموعظـــة الحســـنة تتطلب من المحاور أن تقوم موعظته على الصحة والالـــتزام بها، ويسلك في عرضها الأصول المنطقية الفكرية السليمة، ويتجرد عـــن الأغراض الشخصية، وأن يكون في ذاته، وأخلاقه وأعماله قدوة حسنة، وإتخاذ وسائل الرفق واللين في الحوار، وتنـــزيل الناس منازلهم.

---

(١٥٨) المرجع نفسه، ص ٥٠.

(١٥٩) عبد الرحمن حسن حنيكة الميداني: أسس الحضارة الإسلاميّة ووسائلها، دمشق، بيروت، دار القلم ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م، ص ٣٥٨.

يقول سبحانه وتعالى (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجاد لهم بالتي هي أحسن)[١٦٠].

ويقـــول تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)[١٦١].

ويقول سبحانه وتعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن)[١٦٢].

ماذا نرى في هذه الأيات من تعاليم للمحاورين؟

نـــرى اســـتخدام الحكمة في الحوار، وهي إحدى صفات الحوار الجاد الهـــادف، والتي تقوم على العلم والمعرفة، واحترام وفهم الآخر، والفطنة والذكاء وعمق الوعي، وسعة الإدراك، والاقناع الفكري المنطقي الحكيم، بالحجج والبراهين المثبتة للحقائق، وبأساليب تتلاءم والحالة الفكريّة والنفسيّة للمتحاورين.

أمـــا الموعظة الحسنة، فكما ترتبط الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فكذلـــك الحـــوار قـــرين الحكمة والموعظة الحسنة في جميع الأحوال، وهذا الارتباط من قبيل ارتباط المنهج والمضمون بالوسيلة والأسلوب.

أمـــا الحوار بالتي هي أحسن فهدفه "تعاون الفريقين المتناظرين على معـــرفة الحقيقة بتبصير كلٍ منهما صاحبه بالأماكن المظلمة عليه، والتي خفيت عـــنه حينما أخذ ينظرِ باحثًا عن الحقيقة، وذلك حينما لا يكون أحدهما واقفًا على الحقيقة المبينة وقوفًا قطعيًا غير قابل للنقض، أما في هذه الحالة فإن هدف الجدال بالتي هي أحسن إنما هو تبصير الواقف على الحقيقة أخاه المناظر له بها، والأخـــذ بيده في طرق الإستدلال الصحيح لإبلاغه وجه الحق المشرق، وذلك باســـتخدام الحوار البريء من التعصب، الخالي من العنف والإنفعال، المتمشي وفـــق الأصول العامة للحوار، الذي يستهدف فيه كل من الفريقين المتحاورين الوصول إلى الحقيقة، وكأنه جاهل بها خالي الذهن والنفس من أي استمساك

---

[١٦٠] سورة النحل ١٦: آية ١٢٥.

[١٦١] سورة فصلت ٤١: آية ٣٤.

[١٦٢] سورة العنكبوت ٢٩: آية ٤٦.

سابق بوجهة من وجهات النظر المختلفة، وذلك ابتعادًا عن كل أجواء التعصب والأنانيـــة التي تصرف النفوس والأفكار عن تفهم الحقيقة، أو التسليم بها، ولو انكشفت لها واضحة جلية"[١٦٣].

فـــالحوار بالتي هي أحسن، هو حوار هادئ، وأسلوب سلمي، بعيد عـــن العـــنف والصخب، هذا الحوار أو الجدل بالتي هي أحسن هام بالنسبة للأطراف المتحاورين، فإذا "كانت المجادلة وهي مقارعة الحجة بالحجة، تأتي في المرتـــبة الثانية من مراتب الدعوة إلى الله، وكما أن الدعوة لا تتم على الوجه الشـــرعي، إلاّ إذا كـــانت صادرة عن الحكمة ومقترنة بها، كذلك الحوار لا يكـــون إلا بالتي هي أحسن، أي أحسن الأساليب، وأصح الطرق"[١٦٤]. وفي المنهج، أو الفكرة، أو انتقاء العبارات.

وعندما يختار القرآن الكريم "مبدأ الحوار الهادئ والأسلوب السلمي، وطريقة اللين، يشير إلى نتائج هذا المنهج، وهي نتائج تكاد تكون خيالية، إنها تحـــول العـــدو إلى صديق، والمبغض إلى محب، والبعيد إلى قريب. وبهذا كله يـــتحقق لـــلحوار هدفه، وهو الوصول إلى الإيمان، أو إلى أكبر قدر من الفهم المشترك في الأسس والأهداف"[١٦٥].

ألاّ تروا معي أن الحوار على هذا النحو الراقي، ومن أجل هدف سامٍ، هو ضرورة من الضرورات التي تقتضيها سير الحياة على خطوط سوية، وتفرضها طـــبيعة العمـــران البشري، وألا تروا معي أيضاً أن مثل هذا الحوار دافع للنشاط الإنســـاني، ويشكل بيئة إبداعٍ في شتّى المجالات، وتحصين للمجتمع المتعدد ضدّ المخاطر التي تتهدده وخصوصاً ما يتعلّق منها بالصراعات الطائفية والمذهبية.

٢ – اعتماد العقل والتفكير السليمين:

يوجـــه القرآن الكريم المحاور للآخر، أن تكون لديه الحجة والبرهان

---

[١٦٣] عبد الرحمن حسن حنيكه: أسس الحضارة الإسلاميّة ووسائلها، مرجع سابق، ص. ص ٢٦٥ – ٢٦٦.

[١٦٤] عبد العزيز عثمان التويجري: الحوار من أجل التعايش، مرجع سابق، ص ١٥.

[١٦٥] بسام داود عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، مرجع سابق، ص ١٥٧.

على ما يقدم، وأن يتبع المنطق العلمي والعقلاني، والتسلسل المنطقي للأفكار مع الأدلة عليها.

فمنهجية البحث عند علماء المسلمين قامت على قاعدة: "إن كنت ناقلاً فالصحّة أو مُدعيًا فالدليل"، أي إذا التزمت الطرق المنطقية السليمة فما عليك إلاّ[١٦٦].

أ – تقديم الأدلة المثبتة أو المرجحة للأمور المدّعاة.

ب – إثبات صحة النقل للأمور المنقولة المروية.

فمرحبًا بالحوار إذا كان على هذه الصورة من العقلانية، بحيث يكون نتاجه الخير الوفير، والسعادة والتعاون على البر والتقوى لاعلى الإثم والعدوان.

٣ – التجرد من الأحكّام المسبقة والتعصب لها:

يرسم بعض المحاورين للآخر صورة ذهنية مسبقة، أو حكمًا على الآخر، ولا يريدون أن يحيدوا عن ذلك، وقد يرى بعض الناس أهم على الحق والهدى، وغيرهم على الضلال، إن مثل هذه الأمور عندما تطلق قبل البحث وإقامة الحجة والبرهان، والإتيان بالأدلة، تحول دون الوصول إلى تحقيق أهداف الحوار، وتشكل حاجزًا نفسيًا يصعب اختراقه.

وعندما نقول التجرد من الأحكام المسبقة الخاصة يعني ذلك "وضع مبدأ الشك في كل شيء يعرض مبدئيًا، من قبل طرفي الحوار، ويوحي مبدأ الشك هذا بضرورة أن يعيد كل طرف النظر في موقفه وأفكاره التي يحملها، أي مراجعة الذات بما تحمله من أفكار ومبادئ، فليس لدى أحد الفريقين حكم سابق على الطرف الآخر بأنه على الهدى، أو على الضلال"[١٦٧].

ويتضح هذا الأمر في قوله تعالى (وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)[١٦٨].

---

[١٦٦] عبد الرحمن حبنكة: أسس الحضارة الإسلاميّة ووسائلها، مرجع سابق، ص ٣٦٨.

[١٦٧] بسام داود عجك: الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، مرجع سابق، ص ١٥٨.

[١٦٨] سورة سبأ ٣٤: آية ٢٤.

وفي هـــذا الـــتوجية للمحاور غاية التخلي عن التعصب لأمر سابق، وكمال الرغبة بنشدان الحقيقة أنى كانت.

٤ – مواجهة الطرف الآخر من خلال أفكاره:

يطـــلب إلى المتحاورين سواء كان مسلمًا أو مسيحيًّا، أن يقدم كل منهما أدلته وبراهينه، ويقول الآخر: هات ما عندك من أفكار، وحقائق، وأدلة، فهذه كلها أسلحة المحاورين.

فالمســـلم كمـــا يوجهه القرآن الكريم عليه أن يعرض ما لديه من أفكار فيقـــول: "إذا كـــان لديكم – يخاطب الطرف الآخر – طريق أفضل، أو عقيدة أصح، فنحن على استعداد لقبولها وتلقيها"(١٦٩). ولا يجوز "الطعن بأدلة الآخر إلاّ ضمن الأصول المنطقية، أو القواعد المسلم بها لدى الفريقين المتحاورين"(١٧٠).

٥ – عدم إثارة الطرف الآخر:

إن مـــا نريده من الحوار أن يكون قوة وسلاحًا من أسلحة السجال الـــثقافي والحضاري، وتبليغ الرسالة، وإسماع صوت الآخر وسماعه، وكسب الأنصـــار، وإظهار الحقيقة، ودرء المفاسد، والتواد والتحابب، وهذا أمر حميم جدًا قصره الإسلام على المسيحيّين دون غيرهم من أهل الكتاب، حيث يقول ســـبحانه وتعالى (لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون)(١٧١).

فـــلا يجـــوز أن نـــثير الآخر في حوارنا معه، لأن هذه الإثارة ستولد الانفعـــال، وبالتالي فإن الحوار سينحرف عن منهجه، وسيباعد وجهات النظر، وســـتكون القطيعة، لذلك لا شتيمة، ولا كلام نابٍ، بل قول مهذب، بعيد عن

---

(١٦٩) بسام داود عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، مرجع سابق، ص ١٥٩.

(١٧٠) عبد الرحمن حسن حبنكة: أسس الحضارة الإسلاميّة ووسائلها، مرجع سابق، ص ٣٧١.

(١٧١) سورة المائدة ٥: آية ٨١.

الطعن والتجريح، والهزء والسخرية، واحتقار وجهة النظر، يقول سبحانه وتعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عَدْوًا بغير علم)[١٧٢].

قال العلماء في هذه الآية "حكمها باقٍ في هذه الأمة على كل حال... فـــإذا خيف أن يُسب الإسلام أو النبي عليه السلام أو الله عزّ وجلّ، فلا يحلّ لمسلم أن يسب صلباهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه بمنـــزلة البعث على المعصية"[١٧٣].

فالإســـلام يخاطب المسلم بأنه إذا سلك محاوره مسالك غير مهذبة، فليتقيد بكل قول مهذب، وليسلك كل طريقة هي أحسن وأفضل فكرًا وقولاً، فالمطـــلوب من المسلم، أن يكون في مجادلته على حالة أرقى وأحسن باستمرار من الحالة التي يكون عليها من يجادله، أدبًا وتهذيبًا، أو قولاً وفكرًا"[١٧٤].

٦ – الدعوة إلى ما يجمع لا ما يفرق:

يشـــار إلى المسيحيّين وغيرهم من أصحاب الديانات بأهل الكتاب، وهـــو تعـــبير قرآني يدل على النظرة الإسلاميّة السمحة والمعتدلة تجاه الأديان السماوية، والتي ترفعها عن مستوى الأديان المحلية التقليدية وأديان الشرك.

فالأديان السماوية تشترك جميعها في أسس العقيدة، مثل الإيمان بوجود الله ووحدانيـــته، وأنه هو الأول والآخر المنـــزه عن كل نقصان وأنه خالق كل شـــيء، والإنســـان خليفة الله على الأرض، فهو ينفذ إرادة الله، وهذه الخلافة للإنســـان تـــرى الأديان السماوية أنها لا تتم إلا بأداء العبادات لله، وتتفق هذه الأديان على أن سعادة الإنسان في الدنيا وفلاحه في الآخرة لا يتم إلا باتباع هذه الأسس الإيمانية. وترى أن المعتقدات الدينية الأساسية نعم أنعمها الله على الناس تفضلاً عن طريق الوحي.

---

[١٧٢] سورة الانعام ٦: آية ١٠٨.

[١٧٣] ابو عبد الله محمّد بن أحمد الانصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج ٧، تصحيح ابو اسحاق إبراهيم أطفيش، لا. م، مطبعة دار الكتب، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م، ص ٦١.

[١٧٤] عبد الرحمن حسن حبنكة: أسس الحضارة الإسلاميّة ووسائلها، مرجع سابق، ص ٣٦٧.

بالإضـــافة إلى الأسس المشتركة بين الأديان السماوية. هناك أهداف مشـــتركة لهـــذه الأديان السماوية، تتطلب الرعاية والحماية في موضع المصالح المرسلة التي ترد في خمس خصال: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال.

والديانات السماوية ذات أصل واحد، تنبع من نبع واحد، يدعو إلى البحث عن جوامع مشتركة لما جاءت به هذه الرسالات، **والإسلام يضع نقاطاً للتقارب بين المسلم والمسيحيّ وغيره من أهل الكتاب** وهي:

أ ــ الدعوة إلى الكلمة السواء:

قـــال سبحانه وتعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبيـــنكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابًا من دون الله)[١٧٥].

فالدعوة إلى الكلمة السواء هي الدعوة إلى أهل وأحبة إلى كلمة الحق والعدل والإنصاف، والخضوع لإله واحد خالق.

ب ــ الإيمان بالرسل والكتب المنـــزلة:

قال سبحانه وتعالى (ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله)[١٧٦].

وقـــال ســـبحانه وتعالى (قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهـــيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما اؤتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من رهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)[١٧٧].

---

[١٧٥] سورة آل عمران ٣: آية ٦٤.

[١٧٦] سورة البقرة ٢: آية ٢٨٥.

[١٧٧] سورة البقرة ٢: آية ١٣٧.

وقوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[١٧٨].

لـــدى اســـتقراء هذه الأيات نرى أنها دعوة للجميع بأن يعودوا من خـــلال الحـــوار الإسلامي المسيحي إلى حقيقة الأديان التي جاءت بها الأنبياء والرسل الكرام.

المبدأ الثالث: لا إكراه في الدين:

لا يجـــوز في عملية الحوار الإسلامي المسيحي لأي طرف محاور، ولا يحـــق له أن يُكره الآخر أو يجبره، أو يرهبه ليحوله عن معتقدة، فالحوار مناخه الحرية الفكرية.

لقد وقف الإسلام "حيال الأديان الأخرى جميعها وحيال أهلها موقفًا إنســـانيًا كريمًا يتسم بالتسامح، واحترام عقائد هذه الأديان وشعائرها، وعلى أســـاس هذا الموقف أقام الإسلام جميع ما قرره من قواعد وما سنه من مبادئ لتنظيم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين"[١٧٩].

فالإســـلام لا يكره أحدًا على ترك دينه، واعتناق الإسلام، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)[١٨٠].

ويقول سبحانه وتعالى مخاطبًا الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا، أفا أنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)[١٨١].

ويقـــول سبحانه وتعالى (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم

---

[١٧٨] سورة الشورى ٤٢: آية ١١٣.

[١٧٩] علي عبد الواحد وافي: بحوث في الإسلام والإجتماع، ج ١، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٧ م، ص ٦٣.

[١٨٠] سورة البقرة ٢: آية ٢٥٦.

[١٨١] سورة يونس ٣٦: آية ٩٩.

فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل)[١٨٢].

نرى من هذه الآيات الكريمة أنه "لا يعقل ان يستخدم الإكراه في شؤون العقيدة، فالعقيدة أمر نفسي لا يعرفه ولا يسيطر عليه غير صاحبه، ولا يستطيع أي ضغط خارجي أن يمحوه أو يستدل به غيره، وكل ما يستطيع الضغط أن يفعله هو أن يرغم الشخص على اللفظ باللسان، ومجرد اللفظ باللسان لا يقوى على محو عقيدة قديمة ولا على انشاء دين جديد"[١٨٣].

ولعلنا نذكر قصة الخليفة عمر بن الخطاب مع الامرأة العجوز النصرانية، حيث قال لها: "أسلمي أيتها العجوز تسلمي، إن الله بعث محمّدًا بالحق. قالت: أنا عجوز كبيرة، والموت إليّ أقرب! فقال عمر: اللهم أَشهد"[١٨٤]. وتلا قوله تعالى (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد في الغي)[١٨٥].

المبدأ الرابع: إدراك أن الاختلاف سنة الكون:

نعيش في مجتمع متعدد الطوائف والمذاهب في لبنان وغيره من البلدان العربية والإسلاميّة، وكذلك كان المجتمع في ظلّ الدولة الإسلاميّة، وهذا التعدد والاختلاف هو من مشيئة الله في خلقه، يقول سبحانه وتعالى (ومن آياته أن خلق السموات والأرض وإختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآياتٍ للعالمين)[١٨٦].

ويقول سبحانه وتعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)[١٨٧].

فالحوار الإسلامي "يتطلب وجود تباينات واختلافات في الموقع والفكر

---

(١٨٢) سورة يونس ٣٦: آية ١٠٨.

(١٨٣) على عبد الواحد واقي: بحوث في الإسلام والإجتماع، مرجع سابق، ص ٦٤.

(١٨٤) القرطبي: الجامع لاحكام القرآن ج ٣، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(١٨٥) سورة البقرة ٢: آية ٢٥٦.

(١٨٦) سورة الروم، ٣٠: آية ٢٢.

(١٨٧) سورة يونس، ٣٦: آية ٩٩.

وفي الاجتهاد وفي الرؤى. وأن ذلك انعكاس طبيعي للتنوع الإنساني الذي يعتبر في حدّ ذاته آية من آيات القدرة الإلهية على الخلق ومظهر من مظاهر عظمته"[١٨٨].

والإختلاف لا ينبغي أن يكون مجالاً للتفرقة بل للمحبة والتعاون والصداقة، فالقبول بالتعدد والإختلاف معًا ركيزة من ركائز الحوار، ومن العبث إلغاء الاختلاف، كما نرى في الآيات القرآنية، ومن المستحيل تحويل الإختلاف إلى وفاق مطلق، ولكن من الممكن جدًا، بل من الضروري عدم تحويل الاختلاف إلى خلاف.

إن الإختلاف سنة طبيعية، وإذا ما التزم الناس بآدابه وأقروا بقوانينه، كان ظاهرة اجتماعية إيجابية، لأنه سيكون في سياق التكوين والخلقة والنشأة الأولى. نعم المشكلة تبدأ فقط عندما يتحول هذا الإختلاف إلى نزاع وجدل وشقاق، فتذهب ريح الأفراد والجماعات والأقوام، وتفشل جهودهم ومساعيهم من أجل إعمار الأرض ومن عليها وما عليها، وتشيع الحروب والخرائب في ديارهم مما يمكن اعتباره تضادًا مع السيرة الطبيعية للنشأة الأولى، وتهديمًا متعمدًا لقانون الخلقة، أو محاولة يائسة لفرض إرادة ضعاف الكائنات على سيد الكائنات الذي لا نظير له ولا قادر مثله على فعل ما يريد.

فالله سبحانه وتعالى خلق الناس بفروق فردية فيما بينهم في العقول والمدارك واختلاف الألسن والألوان والتصورات والأفكار والعقائد، وكل ذلك يؤدي إلى تعدد في الآراء والأحكام والمواقف.

ولو رجعنا إلى عهد الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم وما أرساه في مجتمع المدينة المنورة وما أقامه من نسق تعاوني بين شتى فئات الناس من مسلمين ومسيحيين وغيرهم، ومن اعتراف بالتعدديّة الدينيّة حيث برز ذلك من خلال تلك الصحيفة التي دعيت بصحيفة المدينة، وكانت أول وثيقة مكتوبة في تاريخ المسلمين، هذه الوثيقة التي حررها الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم وهو

---

(١٨٨) محمّد السماك: الحوار المسيحي الإسلامي، وجهة نظر إسلامية، في المسيحية والإسلام مرايا متقابلة، مرجع سابق، ص ١٥٤.

يرسي أسس المجتمع الإسلامي في المدينة "هذه الوثيقة جعلت غير المسلمين المقيمين في دولة المدينة مواطنين فيها، لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين، وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين هذه الوثيقة تعد مفخرة من مفاخر الإسلام، لأنها سبقت المواثيق العالمية والدساتير الوطنية بقرون عدة في مجال تطبيق مبدأ الحريّة الدينيّة في ظلّ ظروف الأمن والسلام الاجتماعي القائم على مبدأ الوحدة الوطنية بين ذوي العقائد الدينيّة المختلفة"(١٨٩).

إن هذه الوثيقة الصحيفة هي تطبيق لمبادئ الإسلام، "فالتفرقة بين الناس فيما هو دينوي، حسب اعتقادهم أو جنسهم أو لونهم ليست من منهج الإسلام، إذ القاعدة هي المساواة، فالجميع في ديار الإسلام (أمة واحدة)، كما ورد في صحيفة المدينة، (والخلق كلهم عيال الله) بالتعبير النبوي، فضلاً عن أن الجميع خلقوا من (نفس واحدة) بالتعبير القرآني كما ورد في (سورة النساء آية ١، وسورة لقمان آية ٢٨)"(١٩٠).

فالصحيفة أو المعاهدة هي موقف من قبل الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم "في غاية الحكمة، بأن عقد مع اليهود معاهدة صداقة تفسح المجال للتعايش السلمي بين الديانتين، وتطبع الواقع الجديد بطابعها المتسامح المبني على قاعدة متينة من مواطن اللقاء الكثيرة المشتركة... فما دام هناك موقف مشترك يجمع بين الدعوتين... فليكن هو القاعدة التي يلتقيان عليها. ليكون الحوار في مواقع الإختلاف منطلقًا من مواقع اللقاء الذي يُهيء المجال للتفاهم المشترك على أسس الحوار بعيدًا عن العصبيات والسلبيات"(١٩١).

قد يكون من الخير لأي باحث أن تكون هذه الصحيفة مجال فهم للطبيعة الواقعية للتحرك الرسالي الإسلاميّ في مواقف الصراع العقيديّ والإجتماعيّ، فالباحث عليه "أن يستعرض هذه المعاهدة التي تعتبر من أعظم الوثائق الإسلاميّة للعلاقات بين الأديان... ليعرف كيف كانت المسيرة الإسلاميّة سائرة في اتجاه

---

(١٨٩) ادوار غالي الذهبي: أقول لدعاة الفتنة الطائفية، مرجع سابق، ص ٩١.

(١٩٠) المرجع السابق نفسه، ص. ص ٩٥ — ٩٦.

(١٩١) محمّد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط ٥، ١٤١٧ هـ / ١٩٨٧ م، ص ١١٨.

اعتبار الحوار أساساً لكل عوامل الصراع ومواقعه.. وذلك فيما نراه فيها، من التأكيد على خلق الأجواء الطبيعية الهادئة التي تمهد - في المستقبل - لولادة علاقات طبيعية قائمة على الاحترام المتبادل دينيًا وإنسانيًا في نطاق لا يخضع للعاطفة بل يستند إلى الفكر والقانون"[١٩٢].

ولا شك أن هذا ينطلق من أن "الإيمان ذو الجذر الواحد والتعابير المختلفة اتخذه الإسلام مرتكزًا للانطلاق نحو بناء حياة إنسانيّة واحدة.

هذه الحياة الإنسانيّة الواحدة تقوم على العدل والصدق، وإيثار الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون والبر والتقوى.

هذه الرؤية الإيمانيّة الإنسانيّة للعلاقة مع الآخر وجدت أول تعابيرها المؤسساتية في (صحيفة المدينة) التي أنشأ بها رسول الله [صلى الله عليه وسلم] مجتمعًا واحدًا ضم المسلمين واليهود والمسيحيّين، وهو يكشف النوايا الحقيقية للإسلام الذي أقدم لأول مرة في التاريخ على إنشاء مجتمع واحد مختلط، وحياة واحدة مشتركة، يقوم فيها الناس بمسؤوليات واحدة في حياتهم الدنيا... وفي التطبيق الحياتي تكشف صحيفة المدينة عن الموقف الودي المنفتح على جميع أشكال التعاون على المستوى الوطني وعلى المستوى العالمي"[١٩٣].

من كل ما ذكر يظهر أن الإختلاف سنة إلهية، ورحمة للناس، ويتلاءم مع فطرة الإنسان في قبول الآخر ومحاورته، والحوار لا يكون إلاّ مع الآخر، والآخر لا يكون إلاّ مختلفًا وإلا تنتفي الحاجة إلى الحوار، والإختلاف لا يؤدي إلى الخلاف، على أن تترك الحكم لله سبحانه وتعالى فإليه المصير، يقول سبحانه وتعالى (إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم تختلفون)[١٩٤].

ويقول سبحانه وتعالى (وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله

---

[١٩٢] المرجع نفسه، ص ١١٨.

[١٩٣] محمّد مهدي شمس الدين: المسيحية في المفهوم الثقافي الإسلامي المعاصر، محاضرة ألقيت في المؤتمر الدولي في العاصمة الإيطالية، روما، في الفترة الممتدة ما بين ٦ إلى ٨ مايو ٢٠٠٠، ص. ص ١٤ — ١٥، مرجع سابق.

[١٩٤] سورة المائدة ٥: آية ٤٨.

يحكـــم بينـــنا وبينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون)[١٩٥]، فالحوار عندما نطرق بابه مسلمون ومسيحيون فنحن أمام "جوهر ولب الرسالات السماويّة والفطـــرة الإنسانيّة وهو طريق الرشد والرشاد في الدنيا والآخرة... وذلك بأن الله رب العالمين غني عن الناس، ولو شاء لما خلقهم أصلاً، ولو شاء لجعلهم أمة واحـــدة... ومن حكمة الله في الخلق، وفي إختلاف الناس نعمة ورحمة ولطف إلهي وسنة لا تبديل لها..."[١٩٦].

المبدأ الخامس: مبدأ الإعراض والصبر والتحمل:

عـــندما يصل الحوار إلى حائط مسدود، لا يوصل إلى نتائج واضحة، فمـــن الأولى بالمتحاورين عدم متابعة الحوار، لأنه يصبح جدلاً عقيمًا لا فائدة مـــنه، فهناك أهداف، وأسلوب، ومعاملة، بالمثل، وأن لا يكون طعن وتشويه للدين والعقيدة والإساءة إلى الأنبياء، والتنقيص من الكتب السماوية، فإن كان سلبًا فليكن هناك إعراض وصبر وتحمل.

يقـــول ســـبحانه وتعالى (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم عن دينكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير)[١٩٧]، ويقول تعـــالى (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)[١٩٨]، وقوله تعـــالى (لكـــم دينكم ولي دين)[١٩٩]، وقال تعالى (قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ونحن له مخلصون)[٢٠٠].

---

[١٩٥] سورة الحج ٢٢: آية ٦٨، ٦٩.

[١٩٦] سعود المولى: الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة، مرجع سابق، ص ٣٤.

[١٩٧] سورة البقرة ٢: آية ١٠٩.

[١٩٨] سورة آل عمران ٣: آية ١٨٦.

[١٩٩] سورة الكافرون ١٠٩: آية ٥.

[٢٠٠] سورة البقرة ٢: آية ١٣٩.

المبدأ السادس: العيش المشترك

يعتبر هذا المبدأ نهاية المطاف في الحوار حيث أنه بين الحوار والعيش المشترك "ربـــاط عضوي، فالحوار من شأنه أن يؤكد نقاط التلاقي بين الديانات [لا سيما بالنسبة للبنانيين المسيحيّين والمسلمين]. وأن الأمور المشتركة بين المسيحيّين والمسلمين أكـــثر وأهم بكثير من الأمور التي يختلف فيها. إن استشراف العناصر والمقدمات للحوار بين الإسلام والمسيحية يبلغ بنا إلى معرفة وتعارف، وهما وحدهما يوصلان إلى اتفاق على صيغة الأساس الذي ترتكز عليه علاقات الإخوة والمحبة والتعارف، ونقطة إنطلاق لبناء عيش مشترك"[٢٠١].

والحوار الذي يؤدي إلى العيش المشترك يقوم على[٢٠٢]:

١ - حـــوار الحيـــاة حيث يعمل الناس على أن يعيشوا بروح انفتاح وحسن جوار مقتسمين أفراحهم وأحزانهم، ومشاغلهم الإنسانيّة.

٢ - حـــوار الأعمال: حيث يتعاون المسيحيون والآخرون في سبيل تنمية كاملة وتحرر للإنسان غير منقوص.

وهذان الشكلان يقابلان ما نسميه (العيش المشترك) وهما يعبران عن إرادة البـــلوغ إلى ما يسميه المجتمع الفاتيكاني الثاني (الحوار الأخوي) مع المسلمين وإلى عيـــش مشـــترك تسوده علاقات صداقة بين المسلمين والمسيحيّين. فإن صـــلات الحياة اليومية والإلتزام المشترك بالعمل يفسح المجال للعمل معًا على تعزيز القيم الإنسانيّة والروحيّة المشتركة بين الإسلام والمسيحية.

ومثل هذا الحوار على مستوى الحياة والأعمال المشتركة أي في نطاق العيـــش المشترك يشدد على أهمية (التتمية العامة، والعدالة الإجتماعية وتحرير الإنسان) كما تصرح به وثيقة المجلس البابوي.

---

(٢٠١) المطران بشارة الراعي: في تجديد العيش المشترك، المؤتمر الأول ١٢ - ١٤ أيار ١٩٩٤ م، مركز الدراسات والأبحاث الرعويّة، في دير مار إلياس، أنطلياس، ١٩٩٤ م، ص ٢٥.

(٢٠٢) عادل تيودور خوري: الفاتيكان ومبادئ الحوار الإسلامي المسيحي، في تجديد العيش المشترك، المؤتمر الأول ١٢ - ١٤ أيار ١٩٩٤ م، مركز الدراسات والخدمات الرعوية، دير مار إلياس، أنطلياس، ١٩٩٤ م، ص ٤٧.

إن مـــثل هـــذا العيش المشترك جرى على أرض الواقع في ظلّ الدولة الإســـلاميّة فكـــانت الممارسة العملية له، إنطلاقًا من أن الإسلام حمل لواء العيش والـــتعايش الســـلمي المشـــترك بين الأديان حتى "عندما لا يجدي الحوار في أمور العقيـــدة، وحتى لا يتحول الحوار إلى جدال متوتر ينسف كل أجواء التعايش من أساسها.

والقرآن الكريم واضح صريح في هذه النقطة، حيث يبين أنه لا حرج على المسلم أن يحيا التعايش السلمي، بينه وبين أي إنسان مخالف له في دينه ومعتقده و لم يظاهر الطرف الآخر على المسلم بالعداوة والتحريض، أو الإساءة أو الخيانة، وهذا التعايش السلمي قائم على أساس العدل والإحسان[٢٠٣].

يقول سبحانه وتعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)[٢٠٤].

هـــذا المنهج الذي عرضته والذي ينابيعه ومصادره الأساسية القرآن الكريم والسنة البنوية الشريفة، يجعل الحوار يأخذ مساره الصحيح، وهذا المنهج حـــين يتبع كما يبدو لكل باحث منصف، هو تعبير عن نضج فكري ووعي حضاري، يوصل إلى التواد والمحبة، ومعرفة الآخر، والاحترام المتبادل، وبكلمة عامة يحقق الأهداف المنشودة للحوار.

---

[٢٠٣] بسام داود عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، مرجع سابق، ص ١٦٣.

[٢٠٤] سورة الممتحنة ٦٠: آية ٨

الفصل السابع

العلماء المسيحيّون، مكانتهم ودورهم في المجتمع

مدخل

كان للعلماء المسيحيّين دورهم الكبير في الحياة العلميّة في الدولة الإسلاميّة، وتعايشوا مع زملائهم من العلماء المسلمين في مجتمع تعددي، وقد ساهم هؤلاء العلماء في ميدان التعليم فعلموا المسلمين وتعلموا منهم، وشاركوا في الحلقات العلميّة التي كانت ذات طابع تعددي واضح.

وهناك إحصاء لعدد من العلماء المسيحيّين الذين خلقوا آثارًا كتابية ونقلية وهي كما يلي:

٢١٥ طبيبًا،	٦٣ ناقلاً،	٤٠ فيلسوفًا ومنطقيًا،
١٥ فلكيًا،	١٠ رياضيين،	٧ منجمين،
٥ كيمائيين،	٤ صيدلانيين،	١ جغرافي،
١ نسابة،	١ حجّام،	١ أصطرلالي.

ومما يلفت النظر في هذا الجدول، ارتفاع عدد الأطباء والنقلة والفلاسفة، فيما عدد العلماء الآخرين متدن، وتفسيرنا لذلك أن المسيحيّين كانوا أشدّ ميلاً إلى الاختصاصات الثلاثة الأولى، وأكثر تجاوبًا مع معطياتها ومتطلباتها، بفضل جذورهم الاجتماعية والدينية وارتباطاتهم الثقافية.

فالسواد الأعظم من هؤلاء النصارى كانوا من البلاد الواقعة ضمن

الهلال الخصيب، وكانوا في كثير من الأحيان يجيدون إلى جانب لغتهم الأصلية، أي الأرامية، أو السريانية، لغة الثقافة القديمة أي اليونانية ولغة الفاتحين الجدد العربية وهذا ما دفع الخلفاء إلى الاستعانة بأعداد كبيرة منهم لنقل ثروات الثقافتين اليونانية والسريانية إلى لغة العرب[٢٠٥].

ولا شك أن البيئة العلمية التي كانت تسود مجتمع الدولة الإسلاميّة كانت تساعد العلماء في انتاجهم، وتنتج أيضاً علماء جددًا، فكانت تعقد الحلقات العلمية في حضرة الخلفاء وكانت تجمع العلماء "على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، كانت للخليفة العباسي المأمون حلقة علمية يجتمع فيها علماء الديانات والمذاهب كلها، وكان يقول لهم: ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل واحد منكم بكتابه الديني كيلا تثور بذلك مشاكل طائفية"[٢٠٦].

وكان في مجلس الخليفة العباسي الواثق حلقات علمية "وتعقد في القصر مناظرات في علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة يشارك فيها ابن بختيشوع، ويوحنا ما سويه، وميخائيل إبنه، وحنين بن اسحاق، وسلمويه"[٢٠٧].

وكانت أيضاً تعقد حلقات علمية شعبية "قال خلف بن المثنى: لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علمًا ونباهة، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (سني)، والحميري الشاعر (وهو شيعي)، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق شعوبي)، وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي)، وابن نظير المتكلم (وهو نصراني)، وعمرو بن المؤيد (وهو مجوسي) وابن سنان الحراني الشاعر (وهو صابئ)، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الودّ لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الإختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم، ولقد سرى هذا التسامح إلى البيوت والأسر"[٢٠٨].

---

[٢٠٥] الأب كميل حشيمة: في مقدمة كتاب علماء النصرانية في الإسلام، لويس شيخو، جونية، المكتبة البولسيّة، روما، المعهد البابوي الشرقي، ١٩٨٣ م، ص ٢١.

[٢٠٦] مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٤٢.

[٢٠٧] جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، مرجع سابق، ص ١٣٤.

[٢٠٨] مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٤٣.

وكان المسلمون يتعلمون على أيدي المسيحيّين، والمسيحيّون على أيدي المسلمين، فلم "يكن العالم المسلم يستكف أن يأخذ العلم عن نصراني، حتى الفارابي الفيلسوف الكبير أخذ بعض علمه عن نصارى نجران"[(٢٠٩)].

وكانت "جموع طلاب العلم تتسابق إلى معاهد قرطبة وبغداد والقاهرة كما تستقي الحكمة من صدور معلمي الشرق وحكماء المسلمين. وها هم المسيحيون القابعون في أقاصي زوايا أوروبا الغارقة في ظلام الجهل لا يعدمون نفرًا منهم يؤم الكليات الإسلاميّة ليستنير. وقد أصبح الكثير من هؤلاء رؤساء ومفكرين كبارًا في الديار المسيحيّة فيما بعد. وكان أحدهم هو البابا سلفستر الثاني الذي تلقى علومه في أروقة جامع قرطبة"[(٢١٠)]، حيث جعل هذه المدينة "الأساتذة ورجال العلم كعبة للثقافة في أوروبا، فكان عشاق المعرفة يزحفون إليها من كل حدب ليتلقوا علومهم على يد أولئك المفكرين الكبار، وحتى الراهبة (روسويزا) من ديرها القصي (في غوردهايم) ما كان لها أن تأنف من إنشاد أغاني قرطبة عندما ذكرت قضية استشهاد يوليوجيوس وهي تقول يا قرطبة! يا أروع مكان في العالم وأبهاه"[(٢١١)].

وقد تتلمذ "حنين بن اسحاق على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه حتى أصبح حجة في العربية، وتتلمذ يحي بن عدي على يد الفارابي، ودرس ثابت بن قرة على يد محمّد بن موسى"[(٢١٢)].

ويحي بن عيسى بن جزلة الطبيب البغدادي النصراني "أراد قراءة المنطق فلم يكن في النصارى المذكورين في ذلك الوقت من يقوم بهذا الشأن وذُكر له أبو علي بن الوليد شيخ المعتزلة في ذلك الوقت ووصف بأنه عالم بعلم الكلام ومعرفة الألفاظ المنطقية فلازمه لقراءة المنطق"[(٢١٣)].

---

(٢٠٩) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(٢١٠) سيد أمير علي: روح الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٥٦.

(٢١١) المرجع نفسه، ص. ص ٣٦٣ – ٣٦٤.

(٢١٢) فهمي هويدي: مواطنون لاذميون، مرجع سابق، ص ٧١.

(٢١٣) غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري: تاريخ مختصر الدول، الحازمية، دار الرائد اللبناني، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٣٣٩.

واختير المؤدب المسيحي لتعليم أبناء الأسرة الحاكمة كما حدث في العهد الأموي حيث "اختار عبد الملك بن مروان [الخليفة الأموي] عالمًا مسيحيًّا من مدينة الرها يدعى أثناسيوس مؤدبًا لأخيه عبد العزيز، ورافق أثناسيوس هذا تلميذه إلى مصر، عندما عيّن واليًا عليها وهناك جمع ثروة عظيمة قيل إنه إمتلك أربعة آلاف من العبيد، كما ملك كثيرًا من الدور والبساتين وكان الذهب والفضة عنده كأنه الحصى، وكان أولاده يأخذون من كل جندي دينارًا عندما يتسلم راتبه"[٢١٤].

وهذا أبو الفتح موسى بن أبي الفضل الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي "كان ملمًا بشروح التوراة والإنجيل وكان أهل الذمة يقرأون عليه التوراة والإنجيل وشرح لهما هذين الكتابين شرحًا يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله"[٢١٥].

وهكذا نرى أن النصارى "طلبوا العلم في مدارس المسلمين كما أن المسلمين طلبوا العلم في مدارس النصارى. وأن النصارى علّموا أولاد المسلمين، كما أن المسلمين علّموا أولاد النصارى، يقول الشاعر:

وإني وإن كانوا نصارى أُحبُّهم   ويرتاح قلبي نحوهم ويتوق"[٢١٦]

وقد ازدهرت المدارس النصرانية في بغداد ازدهارًا لا نظير له "وكثرت لديهم مكاتب البيع كما كثرت مدارس الديارات وضمت ألوفًا من المتعلمين والدارسين وازدحمت بمئات من المعلمين والمدرسين والأساتذة. فدرسوا في أغلبهم العلوم العقلية على تعدد أنواعها بل درسوا كل ما يعود إلى اللغة العربية والأرامية واليونانية من أصناف العلوم والمعارف والفنون كالنحو والشعر والتاريخ والجغرافيا والموسيقى والهندسة والفلك والطب والمنطق والفلسفة وعلوم الدين.

---

[٢١٤] ترتون: أهل الذمة في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢١.

[٢١٥] رفائيل بابو اسحق: أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٦٠ م، ص. ص. ١٤٠ – ١٤١.

[٢١٦] المرجع نفسه، ص ١٤١.

وعرفت في مدينة السلام [بغداد] مكاتب بيعة سرجونا وبيعة السيدة المعروفة بيعة العقبة وبيعة درب القراطيس وبيعة درب دينار وهذا فضلاً عن مدارس الديرة والمعابد المبثوثة إذ ذاك في بغداد الشرقية أو الغربية. وقد ألحق بهذه المدارس وغيرها خزائن الكتب العامرة. ومن أشهر مدارس بغداد، مدارس الشماسية ودار الروم ومدرسة كليليشوع ومدرسة دير مار فنيون.

وفي الموصل استفاضت شهرة مدرسة دير مار جبرائيل المعروف بالدير الأعلى الواقع على نهر دجلة، ومدرسة دير ميخائيل الواقع في شمالي الموصل، ومدرسة النبي يونس (يونان) في نينوى، ومدرسة مار إيليا الحيري في غربي الموصل"[٢١٧].

وفي مصر في ظلّ الدولة الإسلاميّة "استمرت دور العبادة القبطية أي الكنائس والأديرة، طوال تاريخ مصر الإسلاميّة، مركزًا للدراسة والعلم، وكان في كل كنيسة كتاب باللغة القبطية عن حياة الآباء، يقرؤه القسيس صباح كل يوم، ولا يسمح لأحد منهم أن يقتنيه. وترجمت كثير من هذه الكتب إلى اللغة العربية"[٢١٨].

وفي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد "وضع جميع المدارس في بغداد تحت إشراف (حنامسينه) الشهير بيوحنا ما سويه"[٢١٩].

وفي عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، عندما كان عمرو بن العاص واليًا على مصر "يسمع [الوالى] بعالم من اليعاقبة [المسيحية] يدعى يوحنا النحوي والذي كان ملاحًا في بدء حياته، فترك الملاحة واشتغل بالعلم، وهو في سن الأربعين، حتى اعتبر من فلاسفة عصره وأطبائه، فاستدعاه عمرو واكرمه لعلمه، ونشأت بينهما صداقة متينة"[٢٢٠].

---

[٢١٧] المرجع نفسه، ص ١٣٧.

[٢١٨] فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

[٢١٩] محمّد عبده: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مرجع سابق، ص ١٦.

[٢٢٠] المرجع نفسه: ص ٨١.

ولا شك أن "تعرض القرآن للمسيحية، في كثير من آياته وتحدثه عن المسيح وإنجيله، جعل المسلمين يهتمون بالإنجيل، ويرجعون في التفاصيل إلى ثقات المسيحية، وإلى من أسلم من النصارى"[٢٢١].

الأطباء المسيحيّون وحظوتـــهم عند الخلفاء وكبار المسؤولين:

لقد تمتع الأطباء والصيادلة المسيحيّون بمكانة جيدة لدى الخلفاء وكبار رجال الدولة، وحتى عند عامة الشعب في ظلّ الدولة الإسلاميّة.

جورجيس بن بختيشوع (ت ١٥٢هـــ / ٧٦٨م) والخليفة المنصور:

كان الطبيب جورجيس بن بختيشوع من المقربين إلى الخليفة العباسي المنصور، ففي سنة مائة واثنتين وخمسين هجرية مرض جورجيس مرضاً صعبًا، أمر به الخليفة فحمل على سرير إلى دار العامة، وخرج إليه الخليفة ماشيًا وراءه وسأله عن خبره فبكى جورجيس بكاء شديدًا. وقال له: إن رأى أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، أن يأذن لي في المسير إلى بلدي لأنظر إلى أهلي وولدي، وإن مت قبرت مع أبائي. فقال الخليفة: أنا على دين أبائي أموت، وحيث يكون أبائي أحب أن أكون، إما في لجنة، أو في جهنم.

فضحك الخليفة من قوله، وقال له: وجدت راحة عظيمة في جسمي مذ رأيتك وإلى هذه الغاية. وقد تخلصت من الأمراض التي كانت تلحقني. قال له جورجيس: إني أخلف بين يديك عيسى وهو تربيتي، فأمر الخليفة أن يخرج جورجس إلى بلده، وأن يدفع له عشرة آلاف دينار، وأنفذ معه خادمًا، وقال: إن مات في طريقه فاحمله إلى منـــزله ليدفن هناك كما آثر، فوصل إلى بلده حيًا[٢٢٢].

وكان وصول جورجس بن بختيشوع وحظوته عند الخليفة إفادة للنساطرة المسيحيّين حيث حصلوا "على نصير عظيم قادر على بلوغ أُذن الخليفة، الذي كان

---

(٢٢١) مصطفى الرافعي: حضارة العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ٣، ١٩٨١ م، ص ١٤٧.

(٢٢٢) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، مكتبة دار الحياة، د. ت، ص ١٨٥.

إعجابه به يزداد يومًا بعد يوم، وكان من خبر ذلك هذه القصة الطريفة عن الهدية التي أهداها الخليفة إلى طبيبه، في عيد الميلاد سنة ١٥١هـــ / ٧٦٨م، فلما بلغ المنصور أن جورجيس قد غادر في عيلام زوجته التي شاخت وأقعدها الوهن عن القيام على رجليها، بعث إليه ثلاثة آلاف دينار مع ثلاث جوار روميات حسان بصحبة سالم الخصي. ولكن جورجيس ردّ الجواري وقال للخليفة: هؤلاء قد لا يكونون معي في بيت واحد، لأننا معشر النصارى لا نتزوج بأكثر من إمرأة واحدة، وما دامت المرأة في الحياة لا نأخذ غيرها. فحسن موقعه من الخليفة، فأمر في وقته أن يدخل جورجيس إلى حظاياه وحرمه ويخدمهن[٢٢٣].

جبرائيل بن بختيشوع وثقة الخليفة الرشيد به

حاز جبرائيل بن بختيشوع على ثقة الخليفة العباسي هارون الرشيد المطلقة، فقد نجده في الرقة سنة ١٩٣هـــ / ٨٠٨م، أول من يدخل على الخليفة كل صباح ويحادثه بأحاديث حميمة، وقد أزال التكلف في معاملة الرشيد، حتى كان يستجيز لنفسه من الإدلال ما كان قمينًا بأن يودي بحياة أي شخص آخر لو أقدَم على مثله.

ومن يجرؤ على الكلام عندما يعين الرشيد جبرائيل بن بختيشوع وسيطاً عامًا إذ يقول: كل من كانت له حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني[٢٢٤].

لقد أصبح جبرائيل بن بختيشوع بالنسبة للخليفة هارون الرشيد بمنـــزلة يوسف بن يعقوب من عزيز مصر أن يعين طيماثاوس الجاثليق على تدبير شؤون رعيته.

---

(٢٢٣) أنظر: أ- القفطي، جمال الدين علي به يوسف: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، بيروت، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، ص ١١٠.

ب - جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٢٢٤) جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، مرجع سابق، ص. ص. ٩٢ – ٩٣.

ونرى جبرائيل بن بختيشوع ينصر الجاثليق طيماثاوس لدى الخليفة في أحوال التنافس على الكراسي الأسقفية في الحصول على عهد الخليفة وفي جملة قضايا أخرى كان فيها جبرائيل، في ما كتب الجاثليق: كان يدًا لي وشفتين ولسانًا على باب ملكنا الظافر، بل كان مني ضميرًا وقلبًا يعقل. كان مني ذلك كله وكذلك كان للكنيسة الجامعة، مد الله في اجله وأجل مولانا الملك المظفر سنين عديدة[(٢٢٥)].

ويروى أن الرشيد كان يدفع له في مدخل صوم النصارى في كل سنة من الورق خمسون ألف درهم، يكون في مدة ثلاث وعشرين ألف ألف ومائة وخمسون درهم، وفي يوم الشعانين من كل سنة ثياب من وشي وقصب وملحم وغيره بقيمة عشرة لآلاف درهمٍ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة [من خدمة الرشيد] مائتا ألف وثلاثون ألفا.

ظلّ جبرائيل ينعم مدة ثلاث سنوات أخرى بالعزّ الذي عرفه من قبل، أيام الرشيد حتى أن هذا الطبيب كان على قول ابن أبي اصيبعة عند الخليفة المأمون مثل أبيه، وكان كل من تقلد عملاً لا يخرج إلى عمله الا بعد أن يلقى جبرائيل ويكرمه. من ذلك أن صالحًا بن الرشيد، عامل البصرة قد حجب عن الدخول على الخليفة، على ما بذله من مال في محاولة ذلك، واضطر إلى العودة بخفي حنين، لا لشيء إلا لأنه استكثر طلب جبرائيل خمس مئة ساجة لعمارة داره القريبة من الميدان بالبصرة، وعرض حمل مئتي ساجه إليه فحسب.

ولما انطلق المأمون سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م ليغزو الأراضي البيزنطية، أراد أن يصطحب طبيبه الهرم، ولكن الخليفة لما رأى ما عليه من الضعف، اكتفى باصطحاب ابنه بختيشوع، وقد مات جبرائيل إبان هذه الغزوة، أي في غياب الخليفة المأمون، فدفن في دير مار جرجس في المدائن، فمضى في تحميل موته ما لم يمضي لأمثاله[(٢٢٦)].

---

(٢٢٥) ابن أبي اصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مرجع سابق، ص ١٩٩.

(٢٢٦) جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، مرجع سابق، ص ١١٣.

والملاحظ أن الخلفاء والأمراء والولاة كثيرًا ما كانوا يصطحبون الأطباء في الحضر والسفر فهذا الطبيب إبراهيم بن عيسى (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٢م) يصطحبه أحمد بن طولون في سفره، وكذلك الطبيب سعيد بن توفيل (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) كان في خدمة أحمد بن طولون في السفر والحضر[٢٢٧].

الخليفة المأمون واختباره مدى مصداقية حنين بن اسحاق:

عاش حنين بن اسحاق في كنف الخليفة المأمون، وكان الخليفة المأمون يسمع بعلم حنين ولا يأخذ بقوله دواء يصفه له حتى يشاور فيه غيره، وأحب امتحانه حتى يزول ما في نفسه عليه ظنًا منه أن ملك الروم ربما كان عمل شيئًا من الحيلة به. فاستدعاه يومًا وأمر بأن يخلع عليه، وأحضر توقيعًا فيه إقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم. فشكر له حنين هذا الفعل ثم قال، بعد أشياء جرت. أريد أن تصف لي دواء يقتل عدوًا نريد قتله، ولم يمكن إشهاده، ونريده سرًا. فقال حنين: يا أمير المؤمنين إني لم أتعلم إلا الأدوية النافعة، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها، فإن أحب أن أمضي وأتعلم فعلت ذلك. فقال: هذا شيء يطول، ورغبه وهدده وهو لا يزيد على ما قاله إلى أن أمر بحبسه في بعض القلاع، ووكل به من يوصل خبره إليه، وقتًا بوقت ويومًا بيوم، فمكث سنة في حبسه دأبه النقل والتفسير والتصنيف، وهو غير مكترث بما هو فيه، فلما كان بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره، وإحضار أموال يرغبه فيها، وأحضر سيفًا ونطعًا وسائر آلات العقوبات. فلما حضر قال: هذا شيء قد كان، ولا بدّ مما قلته لك. فإن أنت فعلت فقد فزت بهذا المال وكان لك عندي أضعافه. وإن امتنعت قابلتك بشر مقابلة وقتلتك شر قتله. فقال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين إني لم أحسن إلا الشيء النافع، ولم أتعلم غيره. فقال الخليفة: فإني أقتلك. قال حنين: لي رب يأخذ حقي غدًا في الموقف الأعظم، فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل. فتبسم الخليفة وقال له: يا حنين طب نفساً وثق بنا. فهذا الفعل كان منا لامتحانك لأن حذرنا من كيد الملك، وإعجابنا لينتفع بعلمك.

---

[٢٢٧] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مرجع سابق، ص ٥٤١.

فقبل حنين الأرض وشكر الله. فقال له الخليفة: يا حنين ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا في الحاليين؟ فقال حنين: شيئان يا أمير المؤمنين. قال: وما هما؟ قال: الدين والصناعة. قال: فكيف؟ قال: الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا فكيف أصحابنا وأصدقائنا، ويبعد ويحرم من لم يكن كذا. والصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم.

ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الأطباء عهدًا مؤكدًا بأيمان مغلطة أن لا يُعطوا دواء قتالاً ولا ما يؤذي. فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين ووطنت نفسي على القتل فإن الله ما كان يضيع من بذل نفسه في طاعته، وكان يثيبني. فقال الخليفة: إنهما تشريعتان جليلتان. وأمر بالخلع فخلعت عليه، وحمل المال بين يديه، وخرج من عنده وهو أحسن الناس حالاً وجاهًا(٢٢٨).

الخليفة العباسي المقتفي يرد للطبيب ابن التلميذ هبة الله حقه من وزير:

ابن التلميذ هبة الله بن صاعد موفق الملك أمين الدولة (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) طبيب نصراني بغدادي، كان يحضر عند المقتفي كل أسبوع فيجلسه لكبر سنة، وكانت دار القوارير ببغداد بجزاة في إقطاعه فحلها الوزير يحي بن هبيره في ولايته فحضر أبو الحسن بن التلميذ يومًا عند الخليفة على عادته فلما أراد الانصراف عجز عن القيام لضعف الكبر. فقال له المقتفي: كبرت يا حكيم. قال: نعم كبرت وتكسرت قواريري، وهذا مثل يتماجن به أهل بغداد لمن عجز وبطل. ففطن الخليفة، وقال: رجل عمَّر في خدمتنا ما تماجن قط بحضرتنا ولهذا التماجن سر. ثم فكر ساعة وسأل عن دار القوارير. فقيل له: فدخلها الوزير ابن هبيرة عنه وأخذها منه. فأنكر المقتفي على ذلك إنكارًا شديدًا وردها إليه وزاده إقطاعًا آخر(٢٢٩).

---

(٢٢٨) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مرجع سابق، ص ٢٦١.

(٢٢٩) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مرجع سابق، ص. ص ٢٢٣ — ٢٢٤.

الخليفة المعتضد بالله واحترامه للطبيب ثابت بن قره (ت ٢٨٨ هـ / ٩٠٠م)

كان ثابت بن قرة ذا خطوة عند الخليفة المعتقد بالله، وكان ثابت هذا يمشي مع المعتضد في الفردوس، وهو بستان في دار الخليفة للرياضة، وكان المعتضد قد اتكأ على يد ثابت وهما يتماشيان، ثم نثر المعتضد من يد ثابت بشدة ففزع ثابت. فإن المعتضد كان مهيبًا جدًا. فلما نثر يده من ثابت. قال له: يا أبا الحسن وكان في الخلوات بكنيه، وفي الملأ يسميه، سهوت ووضعت يدي على يدك، واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يَعلُون ولا يُعلَون(٢٣٠).

الخليفة المهدي والصيدلي ابو قريش عيسى:

هذا الصيدلي النسطوري المسيحي المدعو ابو قريش عيسى، كانت له دكة بالقرب من بعض أبواب قصر الخلافة، وكانت له علاقة طيبة مع الخليفة المهدي، ومع الخيزران صاحبة السلطة الحقيقية، فصار للنساطرة في شخص عيسى نصير ذو نفوذ، وكان أول دور اضطلع به الطبيب والصيدلي هذا هو الحصول على إذن المهدي لأهل طائفته بانتخاب جاثليق جديد(٢٣١).

مكانة الطبيب ابن أبي منى (ابو شاكر بن أبي سليمان داود) ت ٦١٣هـ / ١٢١٦م.

في العهد الأيوبـــي

كان السلطان الملك العادل قد جعله في خدمة ولده الملك الكامل فبقي في خدمته، وحظي عنده الحظوظ العظيمة، وتمكن عنده التمكن الكثير، ونال في دولته حظاً عظيمًا، وكانت له منه اقطاعات ضياع وغيرهما. ولم يزل

---

(٢٣٠) ابن أبي اصيبعة: عيون الأبناء في طبقات الأطباء، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

(٢٣١) جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، مرجع سابق، ص. ص ٧٠ — ٧١

أبدًا بفتقده بالهبات الوافرة، والصلات المتواتره. وكان أيضاً الملك العادل يعتمد عليه في المداواة، ويصفه بحسن العلاج. وكان يدخل أيضاً في جميع قلاعه وهو راكب، مثل قلعة بعلبك وقلعة جعبر، وقلعة الرها، وقلعة دمشق، ثم قلعة القاهرة، مع صحة جسمه. ولقد بلغ من أمره عند سكن الملك الكامل بقصر القاهرة المحروسة أن أسكنه عنده فيه. فكان الملك العادل ساكنًا بدار الوزارة، وأنه ركب ذات يوم على بغلة النوبة التي له، وخرج إلى بين القصرين، فركب فرساً آخر وسير بغلته التي كان راكبًا عليها إلى دار الحكيم المذكور بالقصر وأمر بركوبه عليها وخروجه من القصر راكبًا ولم يزل راكبًا بين القصرين إلى أن وصل إليه فأخذ بيده وسايره يتحدث معه إلى دار الوزارة وسائر الأمراء يمشون بين يدي الملك الكامل.

وللعضد بن منفذ في أبي شاكر قوله:

هذا الحكيم أبو شاكر ... كثـير المـحبين والشاكر
خليفة بقراط في عصرنا ... وثانيه في علمه الباهر(٢٣٢)

الأطبّاء المسيحيّون والخدمات المقدمة للعامة:

كان ابن جزلة أبو علي يحي بن عيسى (ت ٤٩٣هـ / ١١٠٠م) طبيب نصراني، يطبب أهل محلته وسائر معارفه بغير أجرة ولا جعالة بل احتسابًا ومروة ويحمل إليهم الأدوية بغير عوض، ولما مرض مرض موته وقف كتبه في مشهد أبي حنيقة(٢٣٣).

وكان من مروءة ابن التلميذ هبة الله بن صاعد (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) أن ظهر داره كان يلي المدرسة النظامية، فإذا مرض فقية [أي طالب] نقل إليه، وقام في مرضه عليه، فإذا أبل وهب له دينارين وصرفه(٢٣٤).

(٢٣٢) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مرجع سابق، ص ٥٨٩ – ٥٩٠.
(٢٣٣) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مرجع سابق، ص ٢٤٠.
(٢٣٤) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مرجع سابق، ص ٣٥٠.

المترجمون المسيحيّون

في تاريخ الدولة الإسلاميّة ظهر عدد من المترجمين النصارى الذين كانوا يجيدون اللغة الاراميّة أو السريانية، واليونانية والعربية، فكان لهم دور كبير في مجال الترجمة، ففي خلافة المأمون "عرفت حركة الترجمة إلى العربية ذروتها، كانت للخليفة عدة اتصالات بقياصرة الروم ليطلب منهم مما يطلب، أن يأذنوا لبعثة عربية بالسفر إلى بلاد الروم لجمع المخطوطات في علوم الطبيعة الهندسة والطب. وأن، يبعثوا إلى بغداد عالمًا بالرياضات يونانيًّا مشهورًا اسمه لادون. فالمأمون هو مؤسس معهد الترجمة العظيم الذي يعرف بيت الحكمة والذي أنيطت إدارته لسهل بن هارون.

كان معظم المترجمين في البداية من النصارى الملكانيين واليعاقبة والنساطرة خصوصاً وبفضل هؤلاء انتقلت علوم اليونان إلى العرب ثم عادت بواسطتهم إلى أوروبا.

وقد بقيت بعض أسماء الذين ترجموا للمأمون، فمن النصارى الحجاج بن مطر، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي في ترجمة كتب الطب، ويحي بن البطريق الذي كان في جملة الحسن بن سهل"[٢٣٥].

وكان حنين بن اسحاق النصراني العبادي (ت ٢٦٤هـ / ٨٧٣م) من المقربين إلى الخليفة المتوكل العباسي، ويترجم له الكتب فيعطيه بوزنها ذهبًا، وكان أهل طائفته يحسدونه لحظوته عند الخليفة، وخصوصاً (الطيفوري النصراني)، فحكم عليه مجلس الأساقفة بحرمانه من الكنيسة، فمات غمًّا من اضطهاد طائفته له"[٢٣٦].

وقد رعاه "أبناء موسى ابن شاكر الثلاثة محمّد وأحمد والحسن، وهم من رعاة الحركة العلمية ببغداد وقدمه إلى الخليفة المأمون، ولما كان المأمون يهتم ببيت الحكمة ببغداد ويعنى بترجمة كتب الإغريق إلى العربية فقد جعل

---

[٢٣٥] جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، مرجع سابق، ص ١١٩.

[٢٣٦] محمّد عبده: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مرجع سابق، ص ٢٠.

حنين بن إسحاق على رأس هذا المعهد. وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل، وكانت الترجمة بالعربية والسريانيّة وتمكن حنين أن يأتي بأصدقائه الأطباء في مدرسة جُنْد يسابور إلى بغداد وعنوا بدراسة العربية. وكانت الترجمات تتم من مخطوطات إغريقية استحضر وكلاء الخليفة أكثرها من الامبراطورية الرومانية بعد أن أنفقوا الأموال الطائلة لشرائها. وجعل له المتوكل كُتَّابًا نحارير عالمين بالترجمة كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا، وكان عالمًا بالعربية والسريانية واليونانية والفارسية(٢٣٧)".

ومن أشهر المترجمين أيضاً: ثابت بن قره الحراني وهو من الذين راجعوا وصححوا الترجمات العربية في المؤلفات الرياضية والفلكية، وكان يجيد الإغريقية والسريانية والعربية. وقد ألف بالعربية نحو مئة وخمسين بحثًا في المنطق والرياضيات والفلك والطب. وكتب بالسريانية خمسة عشر بحثًا(٢٣٨).

وهناك نقله آخرون منهم: إسحاق بن حنين، ويوسف الخوري القس، وقسطا بن لوقا البعلبكي، وأبو بشر متى بن يونس، وأبو زكريا يحي بن عدي المنطقي اليعقوبي، وأبو علي بن إسحاق بن زرعة، وحبيش بن الأعسم، وعيسى بن يحي بن إبراهيم، ويوحنا بن ماسويه، والحجاج بن مطر، ويوحنا بن البطريق. ومنهم من أرسل إلى بلاد الروم لجلب المخطوطات.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن هذه الترجمات قام بها عدد من العلماء المسيحيّين ولكن هذا الأمر ما كان ليتم لولا تلك العقلية العلمية والتعايشية المنفتحة، ورغبة خلفائهم في ترجمة العلوم العقلية، حيث اعتنوا بعلوم الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والفلسفة والمنطق، وكذلك صيرورة الترجمة هواية لكثير من المثرين والعلماء أمثال: بني موسى بن شاكر.

ولا بدّ من الإشارة أيضاً أن بعض التراجمة قاموا بالتعليق والتصحيح والتأليف وكذلك عمل المسؤولون في الدولة الإسلاميّة، معاهد للترجمة والتعريب، وكل هذا يدل على النشاط العلمي العجيب الذي قام به المسلمون خلال العصور.

---

(٢٣٧) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، بيروت، دار الثقافة، ط ٣، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ٤٣٧.

(٢٣٨) المرجع نفسه، ص ٤٣٨.

الشعراء المسيحيّون في ظلّ الدولة الإسلاميّة

إن من يتتبع آثار الشعراء المسيحيّين في ظلّ الدولة الإسلاميّة يجد مجموعة منهم، نبغوا وكانت لهم مكانتهم، وسمعت أصواقم في مجالس الخلفاء ونوادي الطرب، وعند وقوع الأمور الخطيرة، وظهر على بعضهم آثار دراستهم للغة العربية وفنوها اللسانية النثرية والشعرية.

لقد بلغ الأمر ببعض الشعراء أن تجدهم متعصبين للدولة كما حدث بالنسبة لأعشى بني تعلب المكنى أبو عبد الله والذي كان من "ساكني الكوفة وكان مرواني المذهب شديد التعصب لبني أمية، وقدم الأعشى الشام ودخل على الخلفاء الأمويين في دمشق فمدحهم ونال صلاقم وقد تردد خصوصا على عبد الملك بن مروان وعلى سليمان بن عبد الملك فعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك"[٢٣٩]، وقد نال من عطايا الخلفاء الأمويين وهباقم.

أما الشاعر الأخطل التغلبي، فهو شاعر بني أمية غير منازع يفتخرون به ويحلونه محل ندمائهم وأعزّ أصدقائهم ويجيرون له ما لا يجيرونه لسواه من أصحاهم.

والأخطل هو أبو مالك غياث بن غوث من قبيلة غنم ابن تغلب، مولده في أواسط القرن السابع للميلاد نحو السنة ٦٤٠ م، ولد في الجزيرة ما بين النهرين حيث كانت منازل تغلب في جهات الرقة والرصاقة. وكان ابوه غوث من وجوه قومه وأمه ليلى تعرف بأم كعب وكانت تحبه وتعنى بأمره.

وكان الولد أشهب الشعر لطيف المنظر، فعلقت على صدره صليبًا لم ينـــزعه عن صدره حتى في أيام كهولته وعند دخوله على الخلفاء، فعرف لذلك بذي الصليب.

أما دينه فقد ولد الأخطل نصرانيًا وتلقى مبادئ دينه في حداثته وثبت عليه مدى حياته، والمرجح أنه كان على مذهب اليعقوبية الذي شاع في قبائل البادية. وكان الأخطل يجاهر بدينه لا يعمل فيه الحياء البشري. والدليل عليه دخوله على الخلفاء والصليب على صدره لا يخجل من حمله علانية.

---

[٢٣٩] لويس شيخو: شعراء النصرانية بعد الإسلام، بيروت، دار المشرق، ط ٥، ١٩٩٩ م، ص ٢٩.

... وكان الأخطل يرضخ لأوامر رؤسائه النصارى ويتقرب إليهم في أسرار دينه فكان يقوم بين يدي قسيسه لأخذ القربان.

لقد عمد رؤساؤه الدينيين إلى تأديبه يروي أبو الفرج الاصفهاني في كتاب الأغاني عن أحد الرواة أنه رأى القسيس في الجزيرة وقد قبض بلحية الأخطل وضربه بعصاه وهو يصيء كما يصيء الفرخ، فقال له: أين هذا مما كنت فيه بالكوفة. فقال لا فُضَّ فوه يا ابن أخي إذا جاء الدين ذللنا(٢٤٠).

وروى إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نون عن تذلله في دمشق لقسيسه. قال الأغاني: قدمت الشام وأنا شاب مع أبي فكنت أطوف في كنائسها ومساجدها فدخلت كنيسة دمشق وإذا الأخطل محبوس فجعلت أنظر إليه فسأل عني فأخبر بنسبي فقال: يا فتى إنك لرجل شريف وإني أسألك حاجة. فقلت: حاجتك مقضية، قال: إن القس حبسني ها هنا فتكلمه ليُخلي عني. فأتيت القس فانتسبت له فرحَّب وعظَّم. قلت: إن لي إليك حاجة. قال: ما حاجتك. قلت: الأخطل تخلي عنه. قال: أعيذك بالله من هذا. مثلك لا يتكلم فيه فاسق يشتم أعراض الناس ويهجوهم. فلم أزل أطلب إليه حتى مضى معي متكئًا على عصاه فوقف وجعل يهدده ورفع عليه عصاه. وقال: يا عدو الله أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقذف المحصنات. وهو يتضرع إليه ويقول: لست بعائد ولا أفعل، ويستخذي له. قال: فقلت له: يا أبا مالك الناس يهابونك والخليفة يكرمك وقدْرُك في الناس قدرك وأنت تخضع لهذا هذا الخضوع وتستخذي له. قال: فجعل يقول لي إنه الدين إنه الدين(٢٤١).

أما اتصاله بالخلفاء الأمويين، فقد تنقل الأخطل في البلاد مع قبيلة تغلب الرُحَّل فسكن البادية المجاورة لفترات عند قومه بني مالك وعاش مدة في الحيرة حتى قال عنه الاصفهاني في الاغاني... أنه كان نصرانيًا من أهل الحيرة، ومرّ بالكوفة. ثم نمي خبره إلى خلفاء بني أمية فرحل إليهم إلى دمشق فما لبث

---

(٢٤٠) انظر: لويس شيخو: شعراء النصرانية بعد الإسلام، مرجع سابق، ص. ص ١٧٠ — ١٧١.

(٢٤١) المرجع نفسه، ص ١٧٢.

أن حظي عندهم أوفر حظوة لما سمعوا إنشاده واختبروا جودة قريحته وغزارة مادته ورسوخ قدمه في صناعة الشعر وابتكاره للمعاني البليغة وصوغها في ألطف ديباجة من اللفظ. وقد مدح خلفاء بني أمية مباشرة بيزيد ين معاوية ثم نظم القصائد الطنانة في عبد الملك بن مروان وفي هشام والوليد ابني عبد الملك، فأولع الخلفاء بشعره وحملهم تفضيلهم له على غيره إلى أن دعوه بشاعر بني أمية وأكرموه أي إكرام وأغزروا عليه صلاتهم بل حدا بهم حبهم له أنهم اتخذوه كنديمهم و لم يؤاخذوه لشربه الخمر. وكان الخليفة عبد الملك بن مروان خصوصاً معجبًا به. اخبر ابو عمرو (الأغاني ٧) قال: لقد كان الأخطل يجئ وعليه جُبة خزٍ، وحرز خز في عنقه سلسلة ذهب تنفض لحيته خمرًا حتى يدخل على عبد الملكَ بن مروان بغير إذن. فلما انشده قصيدته الرائية التي أولها (من البسيط): خفّ القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غِيرُ

قال عبد الملك لغلامه: خذ بيده يا غلام فأخرِجْهُ ثم ألقِ عليه من الخلع ما يغمره وأحسن جائزته. ثم قال: أن لكل قوم شاعر وأن شاعر بني أمية الأخطل[٢٤٢].

وكما تفرَّد الأخطل بمدح بني أمية قد برز أيضاً في مديح كبار دولتهم وأعيان زمانه كبشر بن مروان، والحجاج بن يوسف، وعكرمة الفياض، ومصقلة بن هبيرة، وهمام بن مطرف، ويزيد بن المهلب وكثيرين غيرهم. وكانوا كلهم يفضلون مديحه على كل نفيس ثمين[٢٤٣].

وفي ظلّ الدولة العباسية ظهر عدد من الشعراء المسيحيّين، كالشاعر أبو قابوس الذي عاش في عهد هارون الرشيد في أواخر القرن الثامن للميلاد، وكان من المقربين إلى البرامكة وهم قربوه من الخليفة الرشيد وكذلك من الشعراء الأطباء اسحق بن حنين، وسعيد التستري الذي كان يكتب لعلي بن محمّد بن الفرات وزير المقتدر بالله. ويحي بن عدى، وبشر بن هارون، وابن

---

[٢٤٢] المرجع نفسه، ص ١٧٣.

[٢٤٣] المرجع نفسه، ص ١٧٤.

بطريق، وابن بطلان المتطبب الراهب، ورشيد الدين أبو حُليقة، خدم الخلفاء الأيوبيين في مصر وهم الملوك الكامل ثم العادل ثم الصالح وتورانشاه وعاش إلى زمن المماليك وخدم الملك الظاهر.

الفصل الثامن

تولي المسيحيّين للمناصب وحريّة العمل مظهر للحياة والعيش المشترك

تمتع المسيحيّون في ظلّ الدولة الإسلاميّة بالحرية "في مباشرة التجارات والصناعات، والحرف المختلفة. وهذا ما جرى عليه الأمر، ونطق به تاريخ المسلمين في شتى الأزمان. وكادت بعض المهن تكون مقصورة عليهم كالصيرفة والصيدلة وغيرها، واستمر ذلك إلى وقت قريب في كثير من بلاد الإسلام، وقد جمعوا من ذلك ثروات طائلة"[٢٤٤].

يقول آدم متز "لم يكن في التشريع الإسلاميّ ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة، وتجارًا، وأصحاب ضياع، وأطباء. بل إن أهلِ الذمة نظموا أنفسهم، بحيث كان معظم الصيارفة الجهابذة في الشام مثلا يهودًا، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى، فكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذهم عنده"[٢٤٥].

ويشير آدم متز إلى "كثرة عدد العمّال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلاميّة، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام، والشكوى من تحكم أهل الذمة في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة"[٢٤٦].

---

[٢٤٤] يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلاميّ، مرجع سابق، ص ٢٢.

[٢٤٥] آدم متز: الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، ج ١، مرجع سابق، ص ٨٦.

[٢٤٦] المرجع نفسه، ص ٨٣.

وقد بلغ الأمر لدرجة أن بعض المسلمين تضجروا من سيطرة أهل الكتاب على الوظائف ومنها الوظائف العليا، فهذا الشاعر الحسن بن بشر يقول ساخرًا من تلك الحالة[٢٤٧].

تنصر فالتنصر دين حق عليه زمانـــنا هـــذا يـــدلُ
وقل بثلاثة عَزّوا وجُلّوا وعطّل ما سواهم فهو عطلُ
فيعقوب الوزير أب وهذا ألـــ عزيز ابنَ وروح القدس فضلُ

ويقول الشاعر الحسن بن خاقان ساخرًا من تولي اليهود للمناصب العليا[٢٤٨]:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمـــالهم وقـــد مـــلكوا
العزُّ فيهمُ، والمال عندهم ومنـــهم المستشار والـــملكُ
يا أهل مصر نصحت لكم تـــهـــوَّدوا قد تـــهوّد الفلكُ

وهناك أمثلة عديدة لتولي المسيحيّين وغيرهم من أهل الكتاب المناصب في الدولة الإسلاميّة، حيث هي مظاهر العيش المشترك والتسامح الديني، كانت الوظائف تعطى للمستحق الكفء، بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه "فلأهل الذمة الحق في تولي وظائف الدولة كالمسلمين، إلاّ ما عليه الصبغة الدينية كالإمامة، ورئاسة الدولة، والقيادة في الجيش، والقضاء بين المسلمين، والولاية على الصدقات ونحو ذلك وما عدا ذلك من وظائف الدولة يجوز إسناده إلى أهل الذمة إذا تحققت فيهم الشروط التي لا بدّ منها من الكفاية، والأمانة والإخلاص للدولة... وقد بلغ التسامح بالمسلمين أن صرح فقهاء كبار، مثل الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية بجواز تقليد الذمي وزارة التنفيذ، ووزير التنفيذ هو الذي يبلغ أوامر الإمام، ويقوم بتنفيذها، ويمضي ما يصدر عنه من أحكام، وهذا بخلاف وزارة التفويض، التي يكل فيها الإمام إلى الوزير تدبير الأمور السياسية والإدارية والاقتصادية بما يراه"[٣٤٩].

---

[٢٤٧] انظر: أ — ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ١٧٩.
ب — آدم متز: الحضارة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٩٦.

[٢٤٨] آدم متز: الحضارة الإسلاميّة، ج ٢، مرجع سابق، ص ١١٧.

[٣٤٩] يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلاميّ، مرجع سابق، ص ٢٣.

وكذلك يجوز لغير المسلمين في المجتمع الإسلاميّ أن يشاركوا في انتخاب ممثلين لهم لما يسمى حاليًا بمجلس الشعب، أو المجلس النيابي، وكذلك لهم الحق في ترشيح أنفسهم لهذا المجلس، لأن عضوية هذا المجلس تفيد في إبداء الرأي للدولة، وعرض مشاكل وأحوال المواطنين ونتائجها[٢٥٠].

يقول الأب كميل حشيمة في مقدمة كتاب وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام، "أحصينا في كتابنا هذا وحده (٧٥) خمسة وسبعين وزيرًا، و (٣٠٠) ثلثمائة كاتب، و (٣١) واحد وثلاثون متنفذًا آخر مثل القائد وصاحب الشرطة والوالي والسفير وما شابه ذلك... ومما يسترعي الانتباه أنه كان ثمة عائلات امتهن أفرادها الكتابة فتوارثوها أبًا عن جد مما يضمن لها الاستفادة من الخبرة المكتسبة في الأسرة، فضلاً عن الامتيازات الناتجة عنها"[٢٥١].

ومن هذه الأسر المسيحيّة "بنو البقري، وبنو زنبور، وبنو زطينا، وبنو سرجون، وبنو العسال، وبنو مماتي، وبنو الموصلايا، وبنو مكانس، وبنو الهيصم، وآل النشو، وأسرة ابن العميد، والاخوة إبراهيم وبشر وجبر أبناء هارون، وابنا ياطا، وأيوب بن إبراهيم بن الجنيد وأخوة سليمان، وابن الأشقر وولديه، وعبد الرزاق الأرمني وابنه عبد الغني، وكاتب المناخ وابنه، وهبة الله بن السديد وولداه وغيرهم"[٢٥٢].

وستتجه إلى التاريخ لنذكر بعض من تولى المناصب والأعمال في العهود الإسلاميّة المختلفة:

•

في العهد الأموي:

كان المسيحيّون "السكان الأصليين في الشام ومصر والعراق يحسنون

---

[٢٥٠] بسام داود عجك: الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، مرجع سابق، ص ٨٤.

[٢٥١] كميل حشيمة: في مقدمة كتاب وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام (٦٢٢ – ١٥١٧ م)، لويس شيخو، حققه الأب كميل حشيمة اليسوعيّ، جونية، المكتبة البولسية، دوق مكايل، التراث العربي المسيحيّ، رومة، المعهد البابوي الشرقي، ١٩٨٧ م، ص ٢٦.

[٢٥٢] المرجع نفسه، ص ٢٦.

تسيير أمور الحكام لتمرسهم في شؤون الدولة البيزنطية ويلمون بلغات عديدة كالسريانية والعربية فضلاً عن الفارسية"(٢٥٣).

لقد أسند معاوية بن أبي سفيان الإدارة المالية في الدولة لأسرة مسيحيّة توارت أبناؤها الوظائف لمدة قرن من الزمن بعد الفتح الإسلاميّ، ومن أفرادها القديس والمؤرخ يوحنا الدمشقي المعاصر لمعاوية ولولده يزيد. كما أسند معاوية إلى طبيبه ابن آثال جباية خراج حمص، وهي وظيفة مالية لم يسبق لنصراني مثله أن وصل إليها(٢٥٤).

وتذكر مصادر أن جمع الضرائب أو جبايتها كان يتم من قبل وكلاء ينتمون إلى نفس الطائفة وتحت رعاية السلطة المحلية الدينية مما يجعلنا نعتقد أن هؤلاء الوكلاء كانوا معظم الأحيان من المسيحيّين(٢٥٥). وكان لمعاوية ابن أبي سفيان كاتب نصراني اسمه سرجون(٢٥٦).

في العهد العباسي:

كان في خدمة الخليفة المعتصم أخوان مسيحيّان بلغا منـــزلة سامية عند أمير المؤمنين: أحدهما يدعى سلمويه، ويظهر أنه كان يشغل منصبًا قريب أشبه من منصب الوزير في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلاَّ بعد توقيعه عليها. على حين عُهد لأخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة، كما عهد إليه خزانة بيوت الأموال في البلاد، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها أن يوكل أمر الإشراف عليها إلى رجل من المسلمين(٢٥٧).

---

(٢٥٣) المرجع نفسه، ص ١٧.

(٢٥٤) فيليب حتي واخرون: تاريخ العرب (مطول)، ج ٢، مرجع سابق، ص ٢٥٩.

(٢٥٥) سعاد أبو الروس سليم: العلاقات الإسلاميّة والمسيحيّة عبر التاريخ في الحوار والحياة المشتركة بين الطوائف والأديان، النموذج اللبناني، بيروت، مؤسسة الحريري، ١٩٩٦م، ص ٣١.

(٢٥٦) جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٢٥٧) فهمي هويدي: مواطنون لاذميون، مرجع سابق، ص ٧٠.

وكان نصر بن هارون النصراني "كبير وزراء عضد الدولة البويهي الذي حكم العراق جنوبي فارس"[٢٥٨].

وفي عهد المعتضد أيضاً، كان عمرو بن يوسف والي الأنبار مسيحيّا، إذ أن هناك أسبابًا قوية لتفضيل النصراني على غيره من اليهود والمسلمين أو المجوس. وعَهِد الموفق، وكان صاحب السلطان المطلق في عهد أخيه المعتضد، بأمر تنظيم الجيش إلى مسيحيّ يدعى إسرائيل، واتخذ المعتضد نصرانيًا آخر كاتبًا له، وهو ملك بن الوليد، وفي عصر متأخر تولى في أيام المقتدر نصراني آخر أمر ديوان الجيش. وقد ظلت دواوين الحكومة وخاصة ديوان الخراج فترة طويلة مكتظة بالمسيحيّين والفرس[٢٥٩].

كان وزير الخليفة المقتدر بالله (٩٠٨ – ٩٣٢م) يقرب النصارى وينادمهم، هذا الوزير هو أبو الحسن بن الفرات الذي رسم في وزارته الثانية أن يدعى كل يوم جماعة من فضلاء القوم إلى طعامه، ويقعدوا جانبه وبين يديه، بينهم أبو بشر عبد الله بن الفرخان النصراني، وأبو منصور عبد الله بن جبير النصراني، وأبو عمرو سعيد بن الفرخان النصراني[٢٦٠]، و [أبو الحسين سعيد بن إبراهيم التسترى النصراني].

قال علي بن عيسى من وزراء العباسيين لأبي الحسن بن الفرات الوزير: ما اتقيت الله في تقليدك جيوش المسلمين رجلاً نصرانيًا، وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره. فقال له: هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعته. وقد كان المستنصر بالله قلد الجيش إسرائيل النصراني كاتبه، وقلد المعتضد بالله مالك بن الوليد النصراني كاتب بدر ذلك. فقال علي بن عيسى: ما فعلا صوابا. فقال: حسبي الأسوة بهما وإن اخطأا على زعمك.

ولقد أصدر الخليفة أمره عام ٩٧٥م / ٣٦٥هـ بوجوب المساواة بين

---

(٢٥٨) المرجع نفسه، ص ٧٠.

(٢٥٩) المرجع نفسه، والمكان نفسه.

(٢٦٠) محمّد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، ج ١، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٤ م، ص ٢٠٨.

النصارى والمسلمين وهي ظاهرة من ظواهر التسامح لم تستطع أوروبا أن تعمل به إلا بعد عدة قرون[٢٦١].

في العهد الفاطمي:

لقد تزوج الخليفة العزيز بالله (٩٧٥ – ٩٩٦م) امرأة مسيحيّة، "فتولى أصهاره المسيحيّون المناصب، وزاد بلاط الخليفة في إكرام النصارى، ومن اصهاره أرستس خال السيدة إبنة العزيز بالله، وقد صُير بطريركًا على بيت المقدس، وصُير أخوه ارمانيوس مطرانًا على القاهرة ومصر، وكان لهما جميعًا محل لطيف عند العزيز وتقدم في مملكته"[٢٦٢].

واستوزر الفاطميون عددًا كبيرًا من النصارى، كعيسى بن نسطوريوس (من ٣٨٣ – ٣٨٦هـ / ٩٩٦م)، وفهد بن إبراهيم (من ٣٩٠ – ٣٩٣هـ) ومنصور ابن عبدون (٤٠٠ – ٤٠١هـ)، وصاعد بن عيسى بن نسطوريوس (نحو ٣ أشهر في عام ٤٠٩هـ)، وأبو سعيد منصور بن مكراوة ابن زنبور (لبضعة أيام سنة ٤٥٨) وبدر الجمالي الذي تولى وزارة السيف والقلم لأكثر من عشرين سنة (٤٦٦هـ / ١٠٧٣م – ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) وابنه الأفضل أبي القاسم شاهنشاه الذي وزر ٢٨ سنة حتى عام ١١٢١ م، ويانس الأرمني (سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م)، وبهرام الأرمني (٥٢٩هـ / ١١٣٤م – ٥٣١هـ / ١١٣٦م)[٢٦٣].

العهد الأيوبـــي:

لقد كثر عدد الكتاب النصارى في مصر والشام وتولى بعضهم الوزارة، ومن بين الذين يرزوا أبو الكرم ابن زنبور الذي رافق الملك الكامل الأول الأيوبي في حملته على الروم وتوفي خلالها (عام ١٢٣٤). والعميد أبو ياسر (+ ١٢٣٨) الذي كتب في ديوان الجيش، وابنه أبو جرجس المكيف بن العميد الذي ولي

---

[٢٦١] المرجع نفسه، والمكان نفسه.

[٢٦٢] آدم متز: الحضارة الإسلاميّة، ح، ص ٩١.

[٢٦٣] الأب كميل حشيمة: في مقدمة كتاب وزراء النصرانية وكتابها، مرجع سابق، ص. ص ١٩ – ٢٠.

ديوان الجيش في مصر والشام وألف تاريخًا للعالم و "تاريخًا للملة الإسلاميّة" وتوفي عام ١٣٧٣.

ومنهم موفق الدين يعقوب ابن القف، صديق ابن أبي اصيبعة كاتب تراجم الأطباء المشهور. والمكين سمعان بن كليل الذي خدم بديوان الجيش في أيام صلاح الدين ثم ترهب. ومنهم هبة الله بن يونس بن أبي الفتح الدمشقي.

ومن كبار الكتاب المسيحيّين في الدولة الأيوبية شرف الدين الأسعد ابن مماتي ووالده سعيد المهذب الملقب بالخطير... وللأسعد هذا كتاب ضخم بعنوان "قوانين الدواوين"، يعالج فيه ما يمت إلى دواوين مصر ورسومها وأحوالها، كما له كتاب "نظم سيرة صلاح الدين" ومؤلفات أخرى منها ديوان شعر[٢٦٤].

العهد المملوكي:

لقد تقلد بعض النصارى مناصب في العهد المملوكي، فمن الوزراء المسيحيّين عبد الله بن الضيعة المعروف بغبريال (+ ١٣٣٤) الذي انتمى إلى الأمير تنكز نائب الشام فجعله وزيرًا بدمشق... وكانت أيامه كالأحلام لأمنها وكثرة خيرها.

وكان للوزير أبي الفرج بن سعيد الدولة مكانة عند السلطان وكان يعرف بالتاج ابن سعيد الدولة، وخدم الأمير بيبرس سنة (٧٠٢هـ) وقد احتوى على عقله واستولى على جميع أموره.

ومن النصارى أيضاً عبد الله (ماجد) بن موسى المعروف بابن تاج الدين (+ ١٣٧٥) الذي صار صاحب ديوان الأتابك يلبغا العمري الخاصكي فظهر له في مباشرته عنده حذق ومعرفة تامة بأمور ديوانه، ثم خلع عليه الملك الأشرف بن حسين بالوزارة وباشر بها ثلاث مرات.

---

[٢٦٤] المرجع نفسه، ص ٢٣.

ومنهم أيضاً تاج الدين شاكر بن ريشة (+ ١٣٦٤) وكان يتعاطى الآداب وينظم الشعر(٢٦٥).

في الأندلس ودوله:

كانت الجماعات المسيحيّة في الأندلس تخضع لموظفين مستعربين يدعى أحدهم الكومس (Comes-Comte) أو "زعيم عجم الذمة" وباللاتينية (Defensor-Protector)، وكانت الضرائب باستثناء الجزية يحصلها عامل مسيحيّ يدعى المستخرج (Exeptor) وممن ولي منصب الكومس أبو سعيد، وأصبغ بن عبد الله بن نبيل في قرطبة، ومعاوية بن لب، وكلهم من القرن العاشر، والربيع بن تاودولفو الكومس بقرطبة في أول القرن التاسع الذي أوكل إليه الأمير الحكم الأول قيادة حرسه الخاص ويدعى "الدائرة" أو "العرافة" كما أوكل إليه جباية بعض الرسوم المفروضة على المسلمين والمدعوة "المعاون" و "المغارم"(٢٦٦).

والمستعربون المسيحيّون في الأندلس ارتضوا مختارين العربية لغة والعادات الإسلاميّة أسلوبًا، حتى استعملوا الختان، وتركوا أكل لحم الخنـــزير(٢٦٧).

وبعض خلفاء بني أمية استعملوا بعض امناء سرهم (سكرتاريه) من المسيحيّين(٢٦٨).

وممن ولي الوزارة يحي بن اسحاق الأندلسي بالقرن العاشر استوزره عبد الرحمن الناصر وولاه الولايات الجليلة بعد إسلامه.

... والمسيحيّون كانوا سفراء للدولة الإسلاميّة لا سيما إلى الدول النصرانية فقد تلقى الخليفة الأندلسي عبد الرحمن سفارة من الملك اوتو، وأنفذ معهم في عودهم ربيعًا الأسقف(٢٦٩).

---

(٢٦٥) المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٢٦٦) المرجع نفسه، ص ٢٥.

(٢٦٧) عبد الرحمن علي الحجي: الحضارة الإسلاميّة في الأندلس، مرجع سابق، ص ٢٣.

(٢٦٨) المرجع نفسه، والمكان نفسه.

(٢٦٩) المقري: نفح الطيب، ج ١، مرجع سابق، ص ١٣٥.

وفي زمن الحَكَمْ وصلت رسل (غرسية من شائجة ملك البشكنس في جماعة من الأساقفة والقوامس[٢٧٠].

هذا يشير إلى أن العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة بين الدول لم تكن كلها علاقات حربية وعداء "إنما تخللها علاقات حضارية وتبادل علمي وثقافي وفترات من السلام، وتبادل في السفارات السياسية والعلمية بين الممالك الإسلاميّة والمسيحيّة في الأندلس وفي المشرق، أو بين المسلمين في الأندلس وحكّام بيزنطية. ففي العام ٣٤٤هـ / ٩٥٥م وصلت إلى قرطبة سفارة أسبانية مسيحيّة من قبل الملك أردون الثالث (Ordono III) ٩٥١ – ٩٥٦ م[٢٧١].

ولا بدّ هنا من الوقوف السفارات الإسلاميّة المسيحيّة حيث لم تقتصر فقط على النواحي السياسية والعسكرية، بل كان لها أيضاً أهداف علمية.

وعندما نقف عند الأندلس وعند مجتمعها المؤلف من عناصر وأجناس عديدة ومن أصحاب ديانات متعددة، نرى كيف عاش الجميع "في مجتمع يظلله التسامح التام، الاعتبار فيه للكفاءة والمؤهلات وحسب المقتضيات، ولذلك فقد ظهر من أصحاب الديانات المسيحيّة واليهودية مفكرون وعلماء.

وقضية التسامح الإسلاميّ المثالي هناك واضحة بينة وعن طريقه أخذت أوروبا ما لديها من تسامح... وفي مثل هذا الجو من التسامح في الأندلس امتزجت كل القابليات، وفي مثل هذا النضوج والاستقرار السياسي الذي بلغته الأندلس أصبحت أكبر قوة سياسية في العالم تأتيها الوفود من كل مكان طالبة ودّها حريصة على صداقتها"[٢٧٢].

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الحياة المشتركة والتفاعل الإسلاميّ المسيحيّ، سواء في الإقامة المشتركة، أو في العمل المشترك، أو حتى في الحوار كل هذا يعمل على التقارب والتعاون وبناء الوطن الواحد رغم التعددية التي

---

[٢٧٠] المرجع نفسه، ص ٢٤٩.

[٢٧١] حسان حلاق: دراسات في الحضارة الإسلاميّة، بيروت، دار النهضة العربية، ط ١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٣٠٥.

[٢٧٢] عبد الرحمن علي الحجي: الحضارة الإسلاميّة في الأندلس، مرجع سابق، ص ٢٣.

هي واقع وخصوصاً لجهة الأديان، ففي مثل هذا المناخ وهذه البيئة التي هي أشبه ما تكون بمختبرات يتخالط فيها الناس ويتوادون ويتحابون كما رأينا فيما عرضنا من الأمثلة الواضحة الصريحة البعيدة عن أي لون طائفي أو جهوي أو مناطقي، كما كان حال العيش المشترك في ظلّ الدولة الإسلاميّة.

الفصل التاسع

الأخلاق الحربيّة الإسلاميّة في التعامل مع المسيحيّين

لقــد أحسن المسلمون في الحرب معاملة الآخرين، فكانوا ليبي الجانب مع الأعــداء، رحــيمين بالنساء والأطفال والشيوخ، ومتسامحين مع المغلوبين، فوضع الــتاريخ إكليل الخلود على القادة المسلمين عسكريين ومدنيين، فاتحين وحاكمين، فكــانوا أمثلة إنسانية رحيمة عادلة في أشد المعارك احتدامًا، وفي أوقات الحالات التي تحمــل عــلى الانتقام والثأر وسفك الدماء، في عصر كانت تسوده شريعة الغاب "القوي يقتل الضعيف، والمسلح يسرق الأعزل، والحرب شرعة معترف بها بين جميع الشــرائع والديانــات والأمم والشعوب، من غير قيد ولا حد، ومن غير تفريق بين حــرب جائزة وحرب ظالمة، فكل من استطاع أن يغلب أمة على أرضها، ويكرهها على ترك عقيدتها، ويسترق رجالها ونساءها، فعل من غير تحرج ولا تأثم"[٢٧٣].

الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الرائد والمعلم:

فالرسول محمّد صلى الله عليه وسلم، هو رائد في هذا المجال، إنه "التعبير الصادق عن أخلاق الأمة الإسلاميّة وأهدافها ورسالتها،... عُذب واضطهد وأوذي في سبيل دعوته... ثلاثة عشر عامًا في مكة... كلها كيد وأذى وسب وتعذيب له ولجماعته، ومؤامرات على حياته وحياة أصحابه، وعشر سنوات في المدينة... هي كفاح ومعارك متواصلة، لم يخلع لباس الحرب إلا حين خضعت له جزيرة العرب

[٢٧٣] مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٥٢.

قبل وفاته!، ومن خاض الحروب وحمل السيف، وقاتل وقوتل، وعودي واضطهد، كان من أشد الناس شوقًا إلى الدماء وظمأ إلى الانتقام"[٢٧٤].

لكن الرسول محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ودخلها منتصرًا ظافرًا على رأس عشرة آلاف مقاتل، واستسلمت له قريش، ووقفت تحت قدميــه على باب الكعبة، تنتظر حكمه عليها بعد أن قاومته إحدى وعشرين سنة، ما زاد على أن قال: يا معشر قريش! ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا... أخ كــريم وابــن أخ كريم، فقال: اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل (لا تتريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)[٢٧٥]، اذهبوا فأنتم الطلقاء!

إن هذا السلوك يصدر عن محمّد الرسول معلم الإنسانية الخير، لا عن قائد سفاحٍ يسعى لمجده وسلطانه فتسكره نشوة النصر.

ولقــد كانت سيرة أصحاب الرسول وخلفائه من بعده في حروبهم وفــتوحاتهم كــانت قبسًا من هذا النور، وسير في هذا الطريق، وتنفيذًا لتلك المــبادئ، لم يفقدوا أعصابهم في أشد الأوقات حرجًا، ولم ينسوا مبادئهم في اعظم الفتوحات انتصارًا، انهم بكلمة واحدة تلاميذ مدرسة الإسلام.

وها كم مجموعة من الأمثلة:

وصية الخليفة الراشد أبو بكر الصدّيق للقائد أسامة بن زيد:

من وصايا أبي بكر الصدّيق لقواده أثناء الفتوحات الإسلاميّة وصيته لأسامة يوم خروجه بالمسلمين إلى بلاد الشام:

"لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كــبيرًا. ولا تعقروا نخلاً أو تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلاّ للأكل.

---

[٢٧٤] المرجع نفسه، ص ١٥٨.

[٢٧٥] سورة يوسف ١٢: آية ٩٢.

وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم ما فرغوا أنفسهم له."

خريجوا مدرسة الرسول صحابته (خالد بن الوليد، وأبو عبيده بن الجراح وأهل دمشق وحمص)

فتحت الجيوش الإسلاميّة، دمشق وحمص وغيرها من المدن في بلاد الشام، وكان على رأس هذه الجيوش قادة أمثال خالد بن الوليد، وأبو عبيده بن الجراح وغيرهم ممن تربوا في مدرسة الإسلام، في مدرسة الرسول محمّد بن عبدالله، أخذوا من المسيحيّين أهل هذه البلاد مبالغ من المال صلحًا لقاء حمايتهم والدفاع عنهم، فلما رأى هؤلاء القادة أن قائد الروم، هرقل جمع لهم الجموع لينازلهم في معركة فاصلة اضطروا أن يخلوا البلاد المفتوحة ويتجمعوا في مكان واحد ينازلون به الروم مجتمعين، وخرجت الجيوش الإسلاميّة من حمص ودمشق والمدن الأخرى، فجمع خالد بن الوليد أهل حمص، وأبو عبيده بن الجراح أهل دمشق وغيرهما من القادة أهل المدن الأخرى وقالوا لهم: إنا كنا قد أخذنا منكم أموالاً على أن نحميكم وندافع عنكم، ونحن الآن خارجون عنكم لا نملك حمايتكم، فهذه أموالكم نردها إليكم!، فقال أهل المدن: ردّكم الله ونصركم، والله لحكمكم وعدلكم أحب إلينا من جور الروم وظلمهم. والله لو كانوا مكانكم لما دفعوا إلينا شيئًا أخذوه، بل كانوا يأخذون معهم كل شيء يستطيعون حمله[٢٧٦].

عمر بن عبد العزيز وأهل سمرقند:

وها هو الخليفة عمر بن عبد العزيز وفد إليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قائد الجيش الإسلامي قتيبة دخل مدينتهم واسكنها المسلمين غدرًا بغير حق. فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله هناك أن ينصب لهم قاضيًا ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين من سمرقند أخرجوا.

---

(٢٧٦) المرجع نفسه، ص ١٦٣.

فنصب لهم الوالي (جميع بن حاضر الباجي) قاضيًا ينظر في شكواهم، فحكم القاضي وهو مسلم بإخراج المسلمين! على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلامي بعد ذلك، وينابذهم وفقا لمبادىء الحرب الإسلاميّة حتى يكون أهل سمرقند على استعداد لقتال المسلمين، فلا يؤخذوا بغتة، فلما رأى ذلك أهل سمرقند، رأوا ما لا مثيل له في التاريخ من عدالة تنفذها الدولة على جيشها وقائدها! قالوا: هذه أمة لا تحارب، وإنما حكمها رحمة ونعمة. فرضوا ببقاء الجيش الإسلامي، وأقروا أن يقيم المسلمون بين أظهرهم[٢٧٧].

صلاح الدين الأيوبي والفرنجة:

أما صلاح الدين الأيوبي فله قصص مع المسيحيّين أبناء البلاد ومع الغزاة الفرنجة.

كانت العلاقات بين الأيوبيين والأفرنج تختلف ايجابًا وسلبًا، لكنها بشكل عام كانت جيدة "فمعاملة صلاح الدين الأيوبي للافرنج رغم انتصاراته اتصفت بالمعاملة الجيدة والتسامح والكرم كما عامل أسرى الحرب النصارى معاملة حسنة... وقد أشار إلى ذلك ابن شداد واصل، وابن الفرات، وابن الأثير، والمقريزي، وسواهم ممن أوردوا بعض ملامح العلاقات الإيجابية بين الطرفين، وكان صلاح الدين حريصاً رغم عدائه للإفرنج على معاملتهم معاملة طيبة حينما تستدعي الظروف ذلك. وقصصه مع الفرنجة المسيحيّين في الحروب معهم تشبه الأساطير، حتى الغربيين أنفسهم يعجبون من سمو أخلاقه ويتحدثون عنه الكثير.

عندما فتح بيت المقدس، كان في المدينة ما يزيد على مائة ألف من المسيحيّين الغربيين بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم، وأعطاهم مهلة للخروج أربعين يومًا، فجلى منها أربعة وثمانون ألفًا لحقوا بإخوانهم في عكا وغيرها، ثم أطلق كثيرًا من

---

[٢٧٧] انظر: أ – مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٢٢.
ب – محمود الشربيني: القضاء في الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٩٩ م.

الفقراء من غير الفدية. وأدى أخوه الملك العادل الفدية عن ألفي رجل منهم. وعامل النساء معاملة لا تصدر عن أرقى ملك منتصر في العصر الحديث.

ولما أراد البطريرك الافرنجي أن يخرج، سمح له بالخروج ومعه من أموال البيع والصخرة والأقصى والقيامة ما لا يعمله إلا الله. واقترح بعض حاشية صلاح الدين عليه أن يأخذ ذلك المال العظيم، فأجابه السلطان: "لا أغدر به" ولم يأخذ منه الأماكان يأخذه من كل فرد. ومما يزيد في روعة هذا العمل الإنساني الذي عمله صلاح الدين في فتح بيت المقدس، أنه أرسل مع جماهير المسيحيّين الغربيين الذين نزحوا من القدس لينضموا إلى أخوانهم من يحميهم ويوصلهم إلى أماكن الصلبيين في صور وصيدا بأمان، مع أنه لا يزال في حرب معهم!

وأيضاً اجتمع كثير من النساء اللواتي دفعن الجزية وذهبن إلى السلطان يتوسلن إليه قائلات أنهن إما زوجات أو أمهات أو بنات لبعض من أسر أو قتل من الفرسان والجنود ولا عائل لهن ولا مأوى، ورآهن يبكين فبكى معهن تأثرًا وشفقة، وأمر بالبحث عن الأسرى من رجالهم، وأطلق الذين وجدهم وردهم إلى نسائهن. أما اللواتي مات أولياؤهن فقد منحهن مالاً كثيرًا، جعلهن يلهجن عليه بالثناء أينما سرن. ثم سمح لهؤلاء الذين أعتقهم أن يتوجهوا مع نسائهم وأولادهم إلى سائر إخوانهم اللاجئين في صور وعكا. فعل هذا بينما قصد بعض الفقراء المسيحيّين الغربيين الذين تركوا القدس بعد فتحها إلى إنطاكية: فأبى أميرها المسيحي الإفرنجي أن يقبلهم فهاموا على وجوههم حتى آواهم المسلمون. وذهب فريق منهم إلى طرابلس وهي تحت حكم اللاتين، فطردوهم وأبوأ قبولهم وسرقوا أمتعتهم التي منحهم إياها المسلمون.

وحدث أن مرض ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد اكبر قواد حملات الفرنجه وأشجعهم "فما كان من صلاح الدين إلا أن أرسل إليه طبيبًا وفواكه وهدايا تليق بالمريض. ونظرًا لمعاملة صلاح الدين الحسنة للإفرنج، فقد تودد حاكم الساحل الفلسطيني (كندهري) ابن أخت ملك الإنجليز فأرسل إلى صلاح الدين رسالة طلب فيها خُلعة وقال: أنت تعلم أن لبس القباء والتربوش عندنا عيب، وأنا ألبسهما منك محبة لك.

أضف إلى ذلك أن المفاوضات التي جرت بين المسلمين والإفرنج زمن لويس التاسع أسفرت عن إطلاق الأسرى الإفرنج، غير أن المسلمين رفضوا إطلاق سراح الأسرى قبل أن يتناولوا طعامهم وقد أكد (جوانفيل) المعاصر للحدث ذلك بقوله: فطلبنا إليهم أن يدعونا نذهب إلى سبيلنا، فأبوا قائلين: إنهم لن يفعلوا ذلك حتى نتناول طعامنا، لأن خروجكم جوعى من سجننا سيكون سبّة الدهر في جبين أمرائنا.

كما حدث أنه أثناء مباحثات المفاوضات بين سلطان مصر ولويس التاسع، قام مبعوث السلطان بزيارة الملك. وقدم إليه لبنًا في جرار وزهورًا مختلفة الألوان والأنواع هدية من أبناء الناصر (Naser) الذي كان سلطان مصر. وقدم إليه هذه الأشياء وكان هذا المسلم يتكلم الفرنسية(٢٧٨).

وكذلك مما يروى عن صلاح الدين الأيوبي أنه وصله من بيروت خمسة وأربعون أسيرًا من الإفرنج، وتحادث السلطان مع شيخ هرم من بينهم، وسأله عن سبب مجيئه إلى بلاد الشام، فرد الإفرنجي قائلا: وإنما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور. فما كان من السلطان إلا أن رق له ومنَّ عليه بإطلاق سراحه، وقد أخرجه من ذل الرق إلى عزّ العتاق. وردَّه إلى الفرنج راكبًا على فرس. ولم ير قتله ولا أسرة، حيث رأى نفسًا مرهقنة بنفس. كما منع السلطان بعض الشبان من قتل بقية الأسرى، ولما سئل عن ذلك قال: لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدماء(٢٧٩).

ولما فتح السلطان العثماني محمّد الثاني القسطنطينية، دخل إلى كنيسة آيا صوفيا، وكان قد لجأ إليها رجال الكنيسة، فأحسن استقبالهم وأكد حمايته لهم، وطلب من المسيحيّين الفزعين الموجودين فيها أن يذهبوا إلى بيوتهم آمنين. ثم نظم شؤون المسيحيّين، فترك لهم حق إتباع كنائسهم الخاصة، وقوانينهم الملية، وتقاليدهم المتعلقة بأحوالهم الشخصية، وترك للقساوسة انتخاب بطريرك لهم،

---

(٢٧٨) حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميّة، بيروت، دار النهضة العربية، ط ١، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٣ م، ص ٤٠٠.

(٢٧٩) المرجع نفسه، ص. ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧.

فانتخبوا (جناديوس) واحتفل السلطان بانتخابه بنفس الأبهة التي كانت متبعة في عهد البيزنطيين. وقال له: لتكن بطريركًا على صداقتي كل وقتٍ وظرفٍ، ولتتمتع بكل الحقوق والامتيازات التي كانت لمن سبقك. ثم أهداه فرساً جميلاً، وجعل له حرساً خاصاً من الأنكشارية (وهم حرس السلطان) وصحبه (باشاوات) الدولة إلى المكان الذي أعدَّ له، ثم أعلن السلطان الفاتح محمّد الثاني اعترافه بقوانين الكنيسة الأرثوذكسية، ووضعها تحت رعايته، وجمعت واشتريت كل آثار القديسين ومخلفاتهم التي نهبت يوم الفتح وسلمت إلى الكنائس والأديرة.

فعل السلطان محمّد الفاتح هذا دون أن يكون بينه وبين المسيحيّين في القسطنطينية عند الفتح شروط يلزم بالوفاء بها، وإنما تبرع بهذه الحماية والرعاية، ما جعلهم يشعرون أنهم في رعاية الدولة الإسلاميّة الجديدة أكثر أمنًا وسلامًا وحرية دينية منهم حين كانوا تحت رعاية الدولة البيزنطية[٢٨٠].

علاقات علمية وتجارية رغم الحروب:

من خلال ما يورده أسامة بن منفذ بأن العلاقات العلمية والطبية كانت قائمة في بلاد الشام بين الإفرنج وبين العرب، وأن المؤثرات المتبادلة بين الجانبين قد ظهرت من خلال حاجات السكان إلى أطباء من العرب أو الإفرنج، علمًا بأن الطب الإفرنجي بصورة عامة لم يكن طبًا متطورًا أو ناجحًا، مع الإشارة إلى أن الكثير من الأطباء الإفرنج قد تأثروا بالطب العربي وبالوصفات والكتب الطبية العربية التي اطلعوا عليها، ومنها على سبيل المثال كتاب المالكي لعلي بن عباس الذي ترجمه ستيفن البيزوي في أنطاكية سنة ١١٢٧م إلى اللغة اللاتينية، والكتاب الآخر هو "سرّ الأسرار" الباحث في طب العيون والمنسوب لأرسطو حيث ترجم من العربية إلى اللاتينية في أنطاكية أيضاً سنة ١٢٤٧م.

وقد أكد أسامة بن منقذ في كتابه ملامح وشواهد من الطب الغربي والطب الإفرنجي، ومما قاله عن الطب الإفرنجي: ومن عجيب طبهم أن صاحب

---

[٢٨٠] مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٦٨.

المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه فأرسل إليه طبيبًا نصرانيًا يقال له ثابت[٢٨١].

ورغم الحروب التي كانت تقوم بين المسلمين والفرنجة فقد قامت علاقات تجارية جيدة بين الطرفين يحدثنا عنها ابن جبير بقوله:

"واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض.

ويضيف: وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والإعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافيه، والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل البلاد في حربهم، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلمًا أو حربًا، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفي الحديث عنه[٢٨٢].

رحلات الصيد المشتركة بين المتحاربين:

ومن الأمور المشتركة بين الإفرنج والمسلمين - رغم أنهم كانوا في حالة حرب - "رحلات الصيد التي كانوا يقومون بها في المقاطعات والإمارات المشتركة أو القريبة أراضيها بعضها من البعض الآخر. كما كانوا يقومون ببعض المباريات الرياضية وسباقات الخيل واللعب بالرماح. وكانت هواية صيد الطيور والأسماك والغزلان والضباع والوحوش والحمير الوحشية من الهوايات التي شهدتها بلاد الشام ومصر.

وكثيرًا ما جرت رحلات صيد إجتمع بها العرب بالإفرنج، على غرار ما جرى في طبرية ودمشق وبانياس، وكما جرى في عكا عندما إجتمع الأمير

---

[٢٨١] حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٤٢٩.

[٢٨٢] ابن جبير، أبو الحسن محمّد بن جبير الكناني: الرحلة، بيروت، دار التراث العربي، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م، ص ٢٣٥.

معـين الدين وأسامة بن منقذ برجل صياد إفرنجي من الجنوية (أي من جنوى) كـان يحمل بازًا كبيرًا مقرنصاً وقد أعجب الأمير بهذا الباز وطلبه، مما كان من مـلك عكا (ملك الإفرنج فلك بن فلك) إلا أن أخذه من الجنوي وقدمه للأمير معين الدين. وهذا يدل من جهة أخرى على العلاقات السلمية التي كانت قائمة بين الأمراء المسلمين وملوك الإفرنج. ويبدو أن عادة تربية واقتناء الباز قد انتشرت في الشام لأن العرب والإفرنج كانوا يحرصون باستمرار على أصطحاب الباز في رحلات الصيد. وكانت هذه الرحلات قد أدت إلى إقامة صداقات بين الحجاج المسـيحيّين والإفرنج وبين القائمين في البلاد"[٢٨٣] ومما ذكره أسامة بن منقذ في صـدد ذلك قوله: كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم إفرنجي قد وصـل من بلادهم يحج ويعود. فأنس بي وصار ملازمي يدعوني (أخي) وبيننا المودة والمعاشرة"[٢٨٤].

اندماج الفرنجة في المجتمع الشامي والعيش المشترك:

كان المجتمع في بلاد الشام في العهد الصليبي ١٠٩٨ – ١٢٩١م خليطاً من الأجناس والقوميات واللغات والأديان، فقد ضمّ الفرنسي والإنجليزي والإيطالي والألماني إلى جانب العربي والتركي والكردي والأرمني، مع انتشار الأديان الثلاثة اليهودية، والنصرانية، والإسلام، ولغات عدة. وبالرغم من التباين الاجتماعيّ والقومي والديني واللغوي، فإن هذه الجماعات بدأت تنسجم وتتأثر بعضها بالبعض الآخر.

وقد ذكر فوشيه دوشارتر (f. De chartres) في تاريخ ١١٢٠م عن الامتزاج الغربي بالمجتمع الشرقي قوله "واحسرتاه، نحن قد تحولنا إلى شرقيين فمن كان منا إيطاليًا أو فرنسيًا في الأمس فقد أصبح اليوم في وطنه الجديد، جليليًا أو فلسطينيًا، وكذلك قد غدا ابن مدينة ريمس (Reims) أو مدينة (Chartres) صوريًا

---

[٢٨٣] حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٣٩٤.

[٢٨٤] انظر: أ – أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، تحرير وتحقيق، فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة الاميريكية، ١٩٣٠ م، ص ١٣٢.

ب – حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٣٩٤.

أو أنطاكيًا، فقد نسي كل منا وطنه الأول، فلم يعد أحد يتكلم عنه. وقد غدا الواحد منا يملك بيتًا وحشمًا، وهو مطمئن كأنه قد ورث ذلك بحق قديم له في البلاد، كما أن البعض قد تزوجوا لا بالمواطنات الغربيات، بل بالسوريات والأرمنيات، وأحيانًا المسلمات بعد أن تعمدن. وأنا لنستعمل من آن لآخر اللغات المختلفة... إذ أصبح بالحقيقة الفقير منا غنيًا بنعمة الله ومن كان لا يملك سوى دريهات، اصبح ينعم هنا بثروة طائلة ضخمة"[(٢٨٥)].

وهكـــذا يلاحظ بأن المجتمع الشامي أصبح مجتمعًا مختلطاً. وكما أقبل الصليبيون نظرًا لقلة عدد النساء الإفرنجيات اللاتي صحبن المقاتلين – على الزواج من المسيحيات من الموارنة والأرمن والسريان وبعض المسلمات الأسيرات اللاتي تنصرن، فقد أقبل المسلمون بدورهم على الزواج من الأسيرات الإفرنجيات أو الزواج من الفتيات اللاتي ولدن من زواج الصليبي بنساء شرقيات.

ومما شجع المسلمين على ذلك إنعدام العائق الديني وقد نشأ عن هذه الـــزيجات جيل من المولدين عرفوا باسم الأفراخ (Pultani) غلبت عليهم طبائع وعادات الشرق[(٢٨٦)].

مشاركة المسلمين للمسيحيّين في أفراحهم وصلواتهم وأعيادهم:

أشار الرحالة المسلم ابن جبير إلى بعض جوانب الحياة الاجتماعية ووضع المرأة النصرانية، ومشاركة المسلمين للمسيحيّين أفراحهم.

١ – عرس لإفرنجي في مدينة صور:

ومـــن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحـــد الأيـــام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء،

---

(٢٨٥) حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٣٨٨، نقلاً عن:
Foucher de Chartres, Précis, d'Histoire Ortols T 3, p. 360

(٢٨٦) حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٣٨٩.

واصـــطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات الــلهوية، حـــتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال، كأنهمـــا مـــن ذوي أرحامها، وهي في أبهى زيّ، وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبًا على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قـــد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حـــليها وحللها، تمشي فترًا في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر، وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية، تسحب أذيالهـــا خـــلفهم، ووراءها أكفاءها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلي، والآلات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون وسائر النصارى قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة[٢٨٧].

هذا وقد عمل الفرنجة المسيحيّون على اقتباس كثير من عادات المسلمين، فقد تبلدوا (أي أصبحوا كأهل البلد) "فلبسوا الملابس الشرقية واسعة الأكمام زاهية الألوان الموشاة بالحرائر والتطريز، زأطلقوا لحاهم وجلسوا على الزرابي (السجاجيد). واســـتخدموا المساحيق والمرايا الزجاجية واتخذوا المسابح للتسبيح بحمد الله. وأكلوا الأطعمة الشرقية واستعملوا البهارات (Spice) كذلك استخدموا في الولائم وحفلاتهم الراقصات والمهرجين وفي جنائزهم النادبات كما يفعل المسلمون في بعض المناطق، كما استخدموا الآلات الموسيقية العربية... كما أن المرأة الصليبية تشبهت بالمرأة العربية من حيث لباسها وزينتها، فاتخذت الصليبيات لزينتهن المجوهرات الدمشقية والقاهرية وأدوات المساحيق والزينة واستخدمن المرايا الزجاجية والفراء والأقمشة المصنوعة من وبر الجمل. وكان بغدوين الرهاوي (Bowdion of Edessa) ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨م) قـــد بدّل ثيابه الإفرنجية بأخرى شرقية، وأطلق لحيته وتناول طعامه على بســـاط متربعًا على الأرض. وبلغ الأمر بتانكريد الأنطاكي (Tancred of Antioch) المتوفى ١١١٢م، أن سك تقودًا وعليها صورته بزي عربي"[٢٨٨].

---

[٢٨٧] ابن جبير: الرحلة، مرجع سابق، ص ٢٥١.

[٢٨٨] حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٣٩٠.

٢ – المشاركة في عيد مسيحيّ على مركب شراعيّ:

يروي لنا الرحالة ابن جبير أنه "في ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور، وهو أول يوم من نونبر العجمي، كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا له في إسراج الشمع، وكاد لا يخلو أحد منهم، صغيرًا أو كبيرًا، ذكرًا أو أنـــثى، من شمعة في يده، وتقدم قسيسهم للصلاة في المراكب بهم، ثم قاموا واحـــدًا واحدًا لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم، والمركب يزهر كله أعلاه وأسفله سرجًا متقدة، وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة"[٢٨٩].

٣ – الصلاة في أماكن واحدة (مسلمون ومسيحيّون)

لقد بلغ التسامح الإسلاميّ المسيحيّ والعيش المشترك في بعض الأحيان ما يلفت النظر، حيث أن المسلمين والمسيحيّين يقيمون الصلاة في مسجد ومكان واحد، حيث أشار الرحالة ابن جبير إلى ذلك بقوله:

في شرقي مدينة عكا "العين المعروفة بعين البقر، وهي التي أخرج الله مـــنها البقر لآدم، صلى الله عليه وسلم. والمهبط لهذه العين على أدراج وطية، وعـــليها مســـجد بقي محرابه على حاله، ووضع الإفرنج في شرقيه محرابًا لهم. فالمسلم والنصراني يجتمعان فيه، يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه. وهو بأيدي النصارى مُعظَّم محفوظ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين"[٢٩٠].

٤ ـ صورة لعلاقة جيدة بين المسلمين والإفرنج في مناطق بانياس وتبنين:

يصوّر هذه العلاقة الرحالة ابن جبير عن بانياس بقوله:

"وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حد يعرف

---

[٢٨٩] ابن جبير: الرحلة، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

[٢٩٠] المرجع نفسه، ص ٢٤٩.

بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها"[٢٩١].

ولما تحدث عن تبنين قال:"سكانها كلهم مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه،... وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم"[٢٩٢].

وكانت [لأسامة بن منقذ] كما يقول علاقات ودية مع الفرنجة، حيث أرسل "صاحبًا إلى أنطاكية في شغل. وكان بها الرئيس تادرس بن الصِّفي وبيني وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في أنطاكية"[٢٩٣].

انعكاس العلاقات الإيجابية بين المسلمين والفرنجة على المسيحيّين في المناطق اللبنانية والشامية:

مما يلفت النظر أن العلاقات السلمية والحضارية بين الإفرنج والمسلمين في المناطق اللبنانية والشامية انعكست إيجابًا على العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة في هذه المناطق، حيث يشير إلى ذلك ابن جبير بقوله:

"ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان. إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزّ وجلّ فتجب مشاركتهم"[٢٩٤].

ومما يرويه أسامة بن منقذ عن مروءة مُكارٍ نصراني، أنه قد أنفذ مملوكًا له "في شغل مهم إلى دمشق واتفق أتابك زنكي، رحمه الله، أخذ حماة ونزل على حمص. فامتدت الطريق على صاحبي. وتوجه إلى بعلبك ومنها إلى

---

[٢٩١] المرجع نفسه، ص ٢٤٦.

[٢٩٢] المرجع نفسه، ص ٢٤٧.

[٢٩٣] أسامة بن منقذ: الاعتبار، مرجع سابق، ص ١٤٠.

[٢٩٤] ابن جبير: الرحلة، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

طرابلس وأكثرى بغل رجل نصراني يقال له يونان. فحمله إلى حيث إكتراه وودّعه. ورجع وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصل إلى شيزر من حصون الجبل. فلقيهم إنسان فقال لأرباب الدواب، لا تمضوا، فإن في طريقكم في الموضع الفلاني عقد حرامية في ستين سبعين رجلاً يأخذونكم. قال: فوقفنا لا ندري ما نعمل ما تطيب نفوسنا بالرجوع ولا نجسر على المسير من الخوف. فنحن كذلك إذ الريس يونان قد أقبل مسرعًا. فقلنا: ما لك يا ريس؟ قال سمعت أن في طريقكم حرامية جئت لأسيركم، سيروا. فسرنا معه إلى ذلك الموضع. وإذا قد نزل من الجبل خلق عظيم من الحرامية يريدون أخذنا. فلقيهم يونان وقال: يا فتيان، موضعكم! أنا يونان، وهؤلاء في خفارتي. والله ما فيكم من يتقرب منهم؟ فردهم والله جميعهم عنا وما أكلوا من عندنا رغيف خبز، ومشى معنا يونان حتى أمنّا ثم ودعنا وانصرف"[٢٩٥].

---

[٢٩٥] أسامة بن منقذ: الاعتبار، مرجع سابق، ص. ص ٧٩ — ٨٠.

الفصل العاشر

التربيّة على العيش المشترك(*)

هناك قضايا كثيرة تشغل العقول في أيامنا هذه ومن أهمها قضية الحوار بين الأديان وأتباعها، وبخاصة الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، وقضية العيش المشترك أو الحياة المشتركة أو تجديد العيش المشترك بما تطرحه من مسائل تتشعب عنها وبما تفرضه من تحديات تواجهنا جميعًا.

تنطلق أهمية العيش المشترك لارتباطه بالواقع الإنساني، وبالنسبة للمسلمين فهو أحد القيم البالغة الأهمية من المنظور الإسلاميّ، حيث ركز عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وطبقت من قبل المسلمين الأوائل مع أبناء الديانات الأخرى (رغم ما حدث عكسها من قبل أفراد وربما كان فعلاً ورد فعل)، هذا التطبيق الإيجابي للعيش المشترك كان نتاج التربية الإيمانية الراقية التي أنشأ الإسلام عليها أتباعه، من احترام لجميع الأنبياء والمرسلين، وتقدير الدعوات والرسالات السماوية السابقة، واحترام الكتب المنـــزلة قال سبحانه وتعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله) [سورة البقرة ٢: آية ٢٨٤].

ولا يكون العيش المشترك مع الآخرين إلاّ بوجود الألفة والمودة والتفاهم، والرغبة بعيشة مشتركة لحمتها وسداها المحبة والثقة والإرادة المشتركة والنية الصافية الصادقة، وأن يكون العمل للعيش المشترك نابعًا من الذات غير

(*) محاضرة القيت في مدرسة راهبات الورديّة – قرنة الحمراء، يوم الجمعة الواقع فيه ٢٠٠١/٢/٢٢م.

مفروض تحت ضغوط وإكراه، فنحن نعيش في مجتمع تعددي وهذا واقع، فالتعددية تفرض العيش المشترك، وإن رفضنا العيش المشترك فخيارنا هذا هو الكراهية والاقتتال والحروب والصراع ثم الضعف والفناء. خيار الرفض هذا كانت تجربته الحرب الأهلية في لبنان أو ما يسميها البعض (حرب الآخرين على أرضه)، هذه التجربة ينبغي أن تكون لنا عظة وعبرة نستفيد منها في التمسك بالعيش المشترك، وخصوصاً عندما ننظر نتاج انتفاء هذا العيش، الذي جاءت حصيلته:

١٦١٦٥٥	قتيلاً ومفقودًا (أي حوالي ٦% من السكان).
١٩٧٥٠٦	معاقًا ومشوهًا جسديًا.
٨٠٠٠٠٠	مهجر داخل البلاد.
٩٠٠٠٠٠	مهاجر إلى الخارج (أي حوالي ٢٧% من السكان).

وبلغت الأضرار المادية، بحسب تقرير رئيس مجلس الإنماء والإعمار حوالي إثني عشر مليار دولار أميركي، والانتاجية حوالي أربعين مليون دولار، إنه نتاج لغة الحوار المسلح، حوار البنادق كما يعبر عنه علماء الاجتماع، وهذه لغة المجتمعات التي ينعدم فيها الحوار الفكري والعيش المشترك، أو يتعطلان نتيجة الضغط والإكراه، فتتفجر عواطف الكراهية والأحقاد، فيدفع الضريبة الأموات والمعاقون والجرحى من الأبرياء.

لقد استشرت الطائفية وبلغت مداها وأدركت مبتغاها، فأخذنا نبحث عن قطع نادر في إنسان نراه ينتسب إلى عائلة أو قرية ولا ينتسب إلى طائفة، وضيق التهجير من فسحات الإقامة المشتركة وهذا لم نخطوا في إصلاحه إلا خطوات محدودة، ومن دواعي الأسى ألا يعود رأس بيروت إلى أحسن مما كان، ولقد تبع هذا الفرز فرز في مؤسسات الإنتاج والخدمة فعادت لا توجد منطقة صناعية مثلاً إلا وعليها صبغة طائفية غير خفية. وعادت إدارة المصرف تبحث لكل فرع من فروعه عن مدير ومستخدمين يجانسون الوسط الطائفي الذي انشىء فيه الفرع وتفرعت دوائر الدولة نفسها وفق نوع من اللامركزية جمع بين الجهة والطائفة، وبادت على ما هو معلوم أسواق بيروت، وعاد غير

مؤكد أن يكون للعيش المشترك حصة ذات بال في قيامتها العتيدة، وأدرك القدر نفسه مؤسسات التعليم بما فيها المدارس الرسمية التي كانت مميزة حتى الحرب بقدر مقبول من الاختلاط في المدن خاصة بين المسلمين والمسيحيّين. وباتت الجامعة الرسمية نفسها، وهي كانت أوسع مختبر لتخالط النخب فروعًا معظمها ذو لون طائفي غالب يناسب لونه الجهوي، وتزودت كل الطوائف في أعوام (الحرب الأهلية كما يسميها البعض) بالمزيد من المدارس والمشافي وغيرها من دور الرعاية الخاصة بأبنائها عمليًا، بعد أن اقتسمت فيما بينها ما عند الدولة من هذا كله.

ورغم هذا كان هناك بصيص من أمل حين بقي القليل من العيش المشترك والذي هو نتاج نوايا أهلية طيبة هنا وهناك.

مما يتطلب استعادة شروط التواصل والعيش المشترك وتعزيزها، فلا يكون الحديث حديث مجاملة ونفاق، ويكفينا من العيش المشترك أن يتحدث (ناصيف قزي المسيحيّ، ومحمّد منير سعد الدين المسلم) على منبر واحد كرمز من رموز العيش المشترك الإسلاميّ المسيحيّ وكفى.

وأنا في مكاني هذا أحاضر أجدني في مدرسة، وأجد القيمين على هذه المدرسة يدعون أهل التلاميذ، وهنا يتبادر لذهني الأسئلة التالية:

١ - ما دور الأسرة في تربية أولادها على العيش المشترك؟

٢ - ما دور المدرسة في تربية تلاميذها على العيش المشترك؟

٣ - ما دور الجامعة في تربية طلاّبها على العيش المشترك؟

وللإجابة على هذه الأسئلة أقول:

تعتبر **الأسرة** أو العائلة البيئة الاجتماعية الأولى التي تتعهد بتربية الطفل، إنها المهد والمرعى الأول الذي يتربى فيه الطفل جسميًّا، وعقليًّا، وإجتماعيًّا، وخلقيًّا، ودينيًّا، وحين يستجيب للمؤثرات البيئية فإنه يمتص عن طريقها أنماط القيم والعادات والتقاليد المرغوبة وغير المرغوبة.

إن بناتنا وأولادنا يتربون في الأسرة من خلال ما يسمى بالتربية بالقدوة، فالقدوة الحسنة من شأنها أن تطور في حياة الفرد، فالطفل يلجأ إلى الاقتداء بسلوك أمه وأبيه، كما يقتدي بمعلمه، ومن هنا يجب أن يكون السلوك الشائع في الأسرة هو السلوك المرغوب ليمتص الفرد في مرحلة معينة من عمره القيم والمثل والعبر التي من شأنها أن تبني وتؤسس الشخصيّة الاجتماعيّة السوية البناءة، وهذا يتم عن طريق المثال الصالح.

ونخاطب الوالدين فنقول إذا أردتم أن يكتسب أولادكم قيمة العيش المشترك مع الآخر، ينبغي أن تعلموا أن الأسرة هي أول قنوات الإتصال بين المجتمع والأفراد، وهي الوسيط الحضاري بينهما، فالقيم والمفاهيم الإيجابية والسلبية يتقبلها أولادكم منكم بغير نقاش، ولذلك إذا كانت منازلكم (مسيحيّين ومسلمين) على حدّ سواء، مرتعًا للنـــزعة الطائفية في القول والفعل والمسلك والتصرف، ومرتعًا لصور ذهنية سلبية وأحكام مسبقة عن الآخر، فكيف تتصورون أن يكون انفتاحُ وتفهمُ للآخر عند أولادكم. ما رأيكم في أولاد يسألون ماذا يعني مسيحيّ؟ ماذا يعني مسلم؟ لماذا اسم فلان بيار واسم فلان أحمد؟

أنا من أكثر المؤمنين بالعيش المشترك، ولا أقدر على رؤية هويتين إلاّ بهذا العيش المشترك ومن خلاله، أومن بأنه لا حياة للبنان إلا بعيش مشترك بين جناحيه الإسلاميّ والمسيحيّ، فإذا ما انتفى هذا العيش المشترك فأنا لا أعيش بسلام بيني وبين نفسي، هذا ما ينبغي أن نكون عليه.

لقد تعلمت هذا من أسرتي، من أمي وأبي، كان والدي شيخًا معممًا (رجل دين) كان يشدد علينا أن لا نفرق بين مسلم ومسلم، ولا بين مسلم ومسيحي، وكنت أرى طلاّبه من المسيحيّين يأتون إليه في المنـــزل ليتلقوا العلم على يديه، ويأتي إليه مسيحيون يطلبون منه أن يقضي حاجاهم عند صديق أو مسؤول، وكانت أمي تقول (الحي الذي ليس فيه نصارى خساره) ومن هنا من أسرتي، من عائلتي، من والدّي، تركزت لدي قناعات في الحوار الهادف البناء، والعيش والحياة المشتركة.

أما **المدرسة**، فهي مؤسسة أقامها المجتمع لتربية أبنائه تربية مقصودة، ومخطط لها تنتقل بواسطتها الثقافة الخاصة بها وبطرق تقبلها وترتضيها إلى الأجيال الجديدة لتحافظ بذلك على تراثها.

إنها تلعب دورها في النمو المتكامل للمتعلم جسمًا وعقلاً، واجتماعًا، وروحًا، مع أبعاد أخرى كلها تسهم في تكوين شخصية هذا الفرد وبنائه تربويًا، إنها تقوم بتربية الفرد وتنشئته إجتماعيًّا ضمن معايير سلوكية يتعلمها وتضبط سلوكه، ويشترط أن يكون هناك تعاون بين الأسرة والمدرسة والمجتمع، بحيث لا يكون هناك تناقض بينهم فيهدم ما يبني الآخر.

والمدرسة بيئة صالحة لتعليم قيمة العيش المشترك، فعندما يجلس التلاميذ مسلمون ومسيحيون جنبًا إلى جنب على مقاعد الدراسة الرسمية والخاصة، أو عندما يقومون برحلة مدرسية إلى مناطق معينة من لبنان أو يشاركوا بعضهم في الأعياد والمناسبات الدينية، وفي كل ما يدخل تحت مظلة الآلام والآمال والأفراح. أو يزورون أماكن دينية إسلامية ومسيحية، أو يقومون بأعمال بيئية مشتركة، فهذا بذاته تفاعل وتعارف واكتشاف متبادل للآخر، لذلك ينبغي أن يدخل العيش المشترك في مناهجنا التربوية في لبنان، ليصبح واقعًا ملموسًا، وهذا مطروح لإدخاله في مقررات التربية المدنية والتاريخ، بهدف التنشئة على ذهنية وطنية واحدة بعيدة عن التطرف والتعصب، لكن هذا قد تطول مدة تطبيقه أو تقصر مما يتطلب من المعلمين والمعلمات أن يسعوا بتعليقاتهم، وتفسيراتهم الشفهية، والقراءات التي يختارونها لتلاميذهم، والواجبات التي يعطونهم إياها، أن يركزوا على العيش المشترك، ومعرفة الآخر على حقيقته، وتفتيح ذهنية التلميذ على روح المواطنة الحقة، هذا ويمكن أن نعلم تلاميذنا تقنيات الحوار وتبادل الآراء وحل المشاكل مهما كان نوعها. ومن الأمثلة أنه يمكن تكليف التلاميذ وضع لائحة بسلكوكيات في محيطهم متوافقة أو متناقصة مع العيش المشتركة، أو يكلفهم برصد قضايا من العيش المشترك في أسرهم.

وينبغي أن يكون هناك نوع من التنسيق بين معلمي المواد وأخص بالذكر معلم التربية الدينية (المسيحيّة والإسلاميّة).

إن ساعة واحدة من درس ديني كفيلة بأن تنسي التلميذ كل ما تعلمه من انفتاح في كتب التاريخ والتربية المدنية [والعكس صحيح].

إن التربية الدينية تلعب دورًا هامًا في مجال الحوار والعيش المشترك المسيحيّ والإسلاميّ، فهي تعني بإيصال المفاهيم والقيم الدينية وتنشئة التلاميذ عليها، ففي درس التربية الدينية وفي مناهجها، لا بدّ من التعرض إلى دين الآخر، وحتى من خلال أسئلة التلاميذ واستفساراتهم، وهنا يأتي دور المعلم المربي في توجيههم السليم لإحترام دين الآخر، واحترام الحقيقة. وليعرف أن هناك ثوابت وخصوصيّات لكل دين لا يسمح المساس بها.

حبذا لو جرى تعاون ما بين معلمي التربية الدينية الإسلاميّة والمسيحيّة في لبنان، بغية التعرف المتبادل بينهما، وحتى بين التلاميذ، فالأديان السماوية تدعو إلى هذا التعارف والتقارب، وإذا توجهنا نحو الإسلام يقول سبحانه وتعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) سورة الحجرات، آية ٣١. فالكلام هنا موجه إلى الناس على اختلاف ألوانهم وقومياتهم وأديانهم، وطبقاتهم، والإسلام يؤكد أن المسلم أخو المسلم كما هو حال كل دين وعقيدة، ولكن الرابطة الدينية هذه لا تنفي روابط شتى تشكل قاعدة للحياة المشتركة بين المسلم والمسيحيّ في لبنان، فهناك الإخوة الوطنية، والأخوة القومية، والأخوة الإنسانية.

وهنا لا بدّ لي من ذكر تجربة هدفنا منها إلى أن نجمع بين المسلمين أوّلاً، ويكون هناك انفتاح بين المسلمين نحو المسيحيّين ثانيًا، إنها تجربة قامت بها الوحدة التربوية في كلّيّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة، دعونا المؤسسات التربوية الإسلاميّة في لبنان إلى لقاءات لوضع أسس ومنطلقات وعناصر ومعايير وأهداف عامة وخاصة لمنهاج التربية الإسلاميّة لمرحلة التعليم الأساسي والمرحلة الثانوية وبالفعل تم هذا الأمر وصدر في كتيب صغير، ومن العناوين التي تضمنتها:

أن يعرف التلميذ آداب الحوار مع الآخر، والالتزام بالدقة والموضوعية في الحوار مع الآخرين، وإدراك أهمية الحوار الإسلاميّ المسيحيّ وتحديد قضاياه

ومجالاته، والابتعاد عن التعصب في الرأي عند ظهور الحق، وأن يرفض التعصب الأعمى في سلوكه مع نفسه ومع الآخرين، والتمسك بمبدأ التسامح باتجاه الطوائف الدينية غير الإسلاميّة، والحرص على إقامة العلاقات الإيجابية مع أصحاب الديانات الأخرى، وتمسك التلميذ بالتعايش الحسن والتلاقي مع أصحاب الديانات الأخرى، وأن يوضح المعلم للتلميذ مهمات الرسل والأنبياء وخصائصهم عليهم السلام، ويدرك التلميذ ما جاءت به رسالة عيسى السلام، وأن تقوم العلاقة بين أفراد المجتمع على التواد والتراحم والتعاطف والتعارف والعدل... وغيرها.

هذا ما قامت به مؤسسة إسلاميّة أرادت أن تسعى من خلالها إلى بناء ذهنية جديدة لتلاميذنا تحاور في سبيل المعرفة والتعارف اللتان تُوصِلُنا إلى إتفاق على صيغة العيش المشترك.

وانتقل إلى **الجامعة** وفيكم من هو على أبواب دخولها، فأتحدث عن تجربة في الحوار والعيش المشترك بين الكلّيّات والمعاهد الجامعيّة الدينية في لبنان.

إنطلاقًا من خبرات الحوارات السابقة بين المسيحيّين والمسلمين، ومن العمليات التقييمية لها، ومراجعة واستذكار الصيغ والأساليب والممارسات السابقة التي اعتمدت على تحديد موضوعاتها الحيوية، وحشد الطاقات من أجل التصدي للأخطار التي تواجه مجتمعنا، كانت إحدى السبل هي الإنطلاق نحو الجامعة وكلّيّاتها ومعاهدها لتخرج من عزلتها، من أبراجها العاجية، ولتتوجه نحو مجتمعها وتعمل على مواجهة مشكلاته والمساعدة في حلها، وتسهم في إعداد أفراده على أساس تكاملي للطبيعة الإنسانية من خلال الاهتمام بحاجات الإنسان وجوانبه الجسمية والعقلية والروحية، والوقوف في وجه ما يتفشى في مجتمعنا من اتجاهات مادية نفعية، وانصراف عن الدين، وفساد يستشري في جوانب متعددة، والعمل على الحوار الهادف البناء، ومعرفة كل منا الآخر على حقيقته، وأن يكون هذا الحوار طريقًا إلى العيش المشترك، أمام كل هذا كانت مبادرة من كلّيّة إسلامية هي كلّيّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة في بيروت لتكون المبادرة الأولى من نوعها على الصعيد اللبناني منذ عهد الاستقلال، فدعت الكلّيّات والمعاهد الجامعيّة الدينية في لبنان إلى التداول والتحاور حول مواجهة المشكلات والتحديات التي تواجه المجتمع اللبناني.

لبت الدعوة اثنتا عشرة كلّيّة ومعهدًا جامعيًا إسلاميًا ومسيحيًّا وكان اللقاء الأول فيما بينها يوم الثلاثاء الواقع فيه ١٩٩٧/١٢/٦م، واستقر اللقاء على الكلّيّات والمعاهد التالية:

كلّيّة الاجتهاد والعلوم الإسلاميّة في الجامعة الإسلاميّة في لبنان، كلّيّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة، كلّيّة الشرق الأوسط، كلّيّة العلوم اللاهوتية والدراسات الرعائية في الجامعة الأنطونية، وكلّيّة اللاهوت الحبرية في جامعة الروح القدس الكسليك، وكلّيّة اللاهوت للشرق الأدنى، ومركز الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة في جامعة البلمند، ومعهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلاميّة والمعهد العالي للدراسات الإسلاميّة في جامعة المقاصد في بيروت، ومعهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت في حريصا[٢٩٦].

كنا نتلاقى ممثلي الكلّيّات والمعاهد هذه، وكانت لقاءاتنا مستمرة، وكان يسود اجتماعاتنا أخلاقيات ومناخ مناسب للحوار، شارك الجميع بفاعلية وجهد كبيرين، قام الحوار على الاحترام المتبادل، والصدق، والصراحة، والوضوح، والمحبة، والثقة، والصبر، والدقة واللطف.

إنطلقنا من جوامع مشتركة بين الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة، ومن دعوة إلى مواجهة التحديات بالوعي المتزايد والتكاتف والتعاون. وكنا نتبادل الأفكار والحقائق والمعلومات والخبرات، التي تزيد من معرفة كل فريق بالآخر بطريقة موضوعية، كان هناك تلاق واختلاف، ولم يفسد الاختلاف علاقاتنا الودية، واحتفظ كل فريق بمعتقداته وثوابته وخصوصياته، ولكن سعينا بكل الوسائل ليعرف كل منا الآخر على حقيقته، لا كما هي الصورة الذهنية المشوهة عن الآخر، والقائمة على أحكام مسبقة، لم يكن هناك انطواء كل على جماعته ومصالحه بل ساد اللقاء روح المشاركة، والتعايش، والتعاون، والالتقاء على جوامع مشتركة، والحرص على الانفتاح والتعلم من الآخر على جميع الأصعدة.

كنا نتحاور بالتي هي أحسن، يقول سبحانه وتعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن) سورة العنكبوت - آية ٤٦.

---

[٢٩٦] شاركت فيما بعد كلّيّة الشريعة في جامعة بيروت الإسلاميّة.

وعندما نستقرئ هذه الآية فكلمة (أهل) نستعملها لنشير إلى الزوج والزوجة والأولاد... الخ. أي إلى الأسرة أو الأهل، حيث المسيحيّون وهم من أهل الكتاب يشكلون مع المسلمين أسرة واحدة يجمعها الإيمان بالله، والوحي الإلهي، والكتاب (القرآن والإنجيل)، وكذلك (الحوار بالتي هي أحسن)، أي ليس بالحسن بل بالأحسن، وبالتالي باختيار العبارات الحسنة، والأسلوب الهادئ السلمي، اللذان يوصلان إلى نتائج جيدة، بحيث يتحول الجميع إلى أصدقاء.

كان لقاؤنا على الكلمة السواء، كلمة الحق والعدل التي تسوى بين الجميع، يقول الله سبحانه وتعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله) [سورة آل عمران - آية ٦٤].

كانت لقاءاتنا أخوية تنهل من معين الرسالات السماوية، بما اشتملت عليه من عظات وأخلاقيات تقرب الإنسان من أخيه الإنسان.

وكانت نتيجة هذه اللقاءات:

١ - عقد مؤتمر في قاعة قصر اليونسكو في بيروت يومي الأربعاء والخميس ٢، ٣ كانون الأول، ١٩٩٨، تمحور "حول القيم في التربية والإعلام"، شارك فيه محاضرون يمثلون الكلّيّات والمعاهد.

٢ — التطبيق العملي لتوصيات المؤتمر:

أ - زيارة طلاّب كلّيّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة لطلاّب معهد القديس بولس في حريصا، وكان لقاءا مميزًا، تحاور فيه الطلبة والأساتذة، وتعرفوا على المعهد ومعالمه.

ب - زيارة طلاّب معهد القديس بولس كلّيّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة. وقد طلب مني طلاّب معهد القديس بولس أن تكون ممارسة عملية في العيش المشترك.

ج - زيارة طلاّب كلّيّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة لمركز الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة، والمعهد العالي للعلوم الدينية في جامعة القديس يوسف (اليسوعيّة).

د - عقد أعضاء اللقاء اجتماعًا في معهد طرابلس الجامعي للدراسات الإسلاميّة، وقدم أساتذة مقرر مقارنة الأديان في كلّيّة الإمام الأوزاعي، ومركز الدراسات المسيحيّة الإسلاميّة في جامعة البلمند، كيف يدرس هذا المقرر وما هي أهدافه.

هـ - يستفيد طلاّب الكلّيّات والمعاهد من مكتباتها.

و - وُضِعَ مشروع خطة لتفعيل اللقاء بين طلاّب وأساتذة الكلّيّات ضمن أهداف محددة وأنشطة تتضمن:

- محاضرات وندوات تتمحور حول (الأسرة، البيئة، أزمة أخلاقيات العصر... الخ).
- معارض تتضمن مؤلفات أساتذة الكلّيّات والمعاهد، ونشرات وأبحاث، ومجلات، وأنشطة طلاّبية مشتركة.
- زيارات مكتبات جامعية.
- تبادل الخبرات بين أعضاء هيئة التدريس.
- أعمال مجتمعية مشتركة.
- تشكيل لجان طلاّبية تمثل الكلّيّات والمعاهد للتعاون مع الهيئة العامة للقاء لتفعيل هذا اللقاء وأنشطته.
- تبادل المنشورات والأبحاث بين الكلّيّات والمعاهد.
- قيام الأساتذة في الكلّيّات والمعاهد بأبحاث مشتركة.
- إصدار نشرة مشتركة على المدى القريب، ومجلة مشتركة على المدى البعيد.

هذه نماذج من الحوار والعيش المشترك مسيحيون ومسلمون، علينا أن نتعاون جميعًا في تطبيقها، إنه تحد مطروح علينا جميعًا، تحد لمدى التطبيق العملي لوعود الحوار والعيش المشترك ولنوايا المتحاورين، مما يتطلب جهودًا صبورة ومستمرة، حتى تصبح هذه القيم ضرورة لا يستغني عنها.

وختامًا، أقول وأردد:

"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

"الخلق كلهم عيال الله، أحبهم إليه انفعهم لعياله".

بهذه الكلمات **فاه النبي محمّد صلى الله عليه وسلم.**

"أحبوا بعضكم بعضاً" (إنجيل يوحنا ١٧:١٥).

"افعلوا للآخرين ما تريدون أن يفعل الآخرون بكم" (إنجيل متى ٧:١؛ إنجيل لوقا ٦:٣١).

"فلو كنت أنطق بألسنة الملائكة والناس، ولم تكن فِيَّ المحبة، فإنما أنا نحاس يطن، أو صنج يرن" (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنش ١٣:١).

وبهذه الكلمات **فاه السيد المسيح عليه السلام وبولس الرسول.**

ولعلي أردد قول ابن عربي الصوفي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعًى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوهام وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني توجَهَتْ ركائبه، فالحب ديني وإيماني

ولا شك أن حب هذا الشاعر المتصوّف هو حب الله، ومن يحب الله الخالق، يحب مخلوقاته، لذلك أدعوكم إلى المحبة الشاملة التي تجمع ولا تفرق بين إنسان وآخر، مهما كان دينه، وجنسه، ولونه، لأن هذه هي تعاليم الإسلام والمسيحيّة.

الفصل الحادي عشر

نحو تعايش إسلاميّ ــ مسيحيّ[*]

نحو تعايش إسلاميّ – مسيحيّ. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وأسعدتم مساءً وأهلاً بكم جميعًا في رحاب "كليّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة".

أيّها الإخوة والأخوات،

إن من أهمّ القضايا التي تشغل عقول النخبة من العلماء ورجال الدين والمفكّرين، وتستقطب اهتمام المشتغلين بالدراسات المستقبليّة، والمهتمّين بمصير الحضارات على جميع مستوياتها، قضيّة التعايش والحوار بين الأديان، بما تطرحه من مسائل تتشعّب عنها، وبما تفرضه من تحدّيات تواجهنا جميعًا.

ولما كانت قضيّة التعايش بين الأديان ومعتنقيها، والتسامح والحوار ذاتَ أهميّة في الواقع الإنسانيّ، رأيت لزامًا عليّ أن أحدثكم في لقائنا هذا عن التعايش الذي هو إحدى القيَم البالغة الأهميّة من المنظور الإسلاميّ، والتي ركّز عليها القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة، ورأينا تطبيقها من قبل المسلمين الأوائل الذين لجأوا إلى مبدإ التعايش السلميّ والعيش المشترك مع أبناء الديانات، وكان هذا نتاج التربية الإيمانيّة الراقية التي نشّأ الإسلامُ عليها أتباعَه، وبخاصة

---

[*] ١- محاضرة أُلقيت أثناء زيارة طلاّب معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت ــ حريصا إلى كلّيّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة، وذلك بعد ظهر يوم الثلاثاء ٧ محرم ١٤٢٠/هــ الموافق ١١ نيسان ٢٠٠٠م.

٢- مقال نُشر في مجلّة "المسرّة"، السنة السادسة والثمانون العدد ٨٤٦، تموز – آب ٢٠٠٠م.

منها إجلال جميع الأنبياء والمرسلين، وتقدير كلّ الدعوات والرسالات السماويّة السابقة، واحترام الكتب المنـــزلة.

والتعايش كلمة نعني بها العيش المشترك مع الآخرين، ولا يكون هناك تعايش إلاّ بوجود الألفة والمودّة، ولا يعيش الإنسان مع غيره إلاّ إن وُجد بينهما تفاهمٌ ورغبةٌ بعيشة مشتركة لُحمتها الألفة وسداها المودّة والثقة، والإرادة المشتركة التي منها تنطلق الرغبة في التعايش والنابعة من الذات، فلا تكون مفروضةً تحت ضغوط أيًّا كان مصدرُها، أو مرهونةً بأسباب مهما كانت.

والتعايش بين الأديان يكون بتفاهم حول الأهداف والغايات، حتى لا يكون التعايش فارغًا من أيّ مدلول علميّ، أو لا يحقّق الفائدة للطرفين، وأن يكون القصدُ الرئيسيُّ من التعايش، خدمةَ الإنسانيّة عامةً، وتحقيق المصالح البشريّة العليا، وفي مقدّمتها استتباب الأمن والسلم في الأرض، والحيلولة دون قيام أسباب الحروب والنـــزاعات، وردع العدوان والظلم والاضطهاد الذي يلحق بالأفراد والجماعات، واستنكار كل السياسات والممارسات التي تُهضم فيها حقوق الشعوب على أيّ مستوًى من المستويات، ومحاربة العنصريّة والعرقيّة واستعلاءِ جنس على جنس تحت أيّة دعوة من مثل هذه الدعاوى المتهافتة المردودة الباطلة.

والتعايش يتطلّب تعاونًا في عمل مشترك من أجل تحقيق الأهداف المتّفق عليها، ووفقًا للخطط التنفيذيّة التي يضعها الطرفان الراغبان في التعايش المصمّمان عليه، مع ضرورة احتضان هذا التعايش وصونه بسياجٍ من الاحترام المتبادَل، ومن الثقة المتبادلة أيضًا. حتى لا تغلب مصلحةُ طرَف على مصلحة الطرف الثاني، مهما تكن الدواعي والضغوط. وذلك بأن يتمَّ الاحتكامُ دائمًا إلى ما يجمع لا إلى ما يفرّق، وإلى القدر المشترك من القيَم والمُثل والمبادئ التي لا خلاف عليها ولا نزاعَ حولها، هذه القيَم والمُثل والمبادئُ المستقاة من الديانات السماويّة.

فالتفاهم والتعايش إذا كانا مع طرفين مختلفين في العقيدة – وهذا هو الواقع – فمن الضروريّ توافر لدى كلّ منهما رغبةٌ في العيش المشترك وتسامحٌ حول الأمور المختلف فيها، وقبولٌ من الطرفين بالتعدديّة العقائديّة. ولا يكفي أن

يؤمن بالتعايش والتسامح طرفٌ واحدٌ بينما ينكر ذلك ويأباه الطرفُ الآخرُ أو الأطرافٌ الأخرى.

وعندما نقول تعدديّة دينيّة، نعرف أن الإسلام يرى في التعدديّة الدينيّة سُنَّةً من سنن الله في خلقه، لا تبديلَ لها ولا تحويل. قال سبحانه وتعالى: لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجًا، ولو شاءَ الله لجعلكم أمةً واحدةً ولكن ليبلوكم فيما ءاتاكم فاستبقوا الخيرات [سورة المائدة آية ٤٨]؛ وقال سبحانه وتعالى: ولو شاءَ ربُّك لجعل الناس أمةً واحدة ولا يزالون مختلفين، إلاَّ من رحم ربك ولذلك خلقهم [سورة هود، آية ١١٨ - ١١٩]. فالله سبحانه وتعالى خلق البشر للتنوّع والاختلاف، لكنّه يريد لكلّ الملل والشرائع والديانات وحدةً جامعةً لتنوّعها، ورابطةً ضابطةً لاختلافها، ووحدةً في توحيد الخالق المعبود، وفي الإيمان بالغيب، وفي العمل الصالح. فهذه هي أصول الدين الإلهيّ الواحد، التي اتفقت فيها وعليها كلُّ الشرائع والنبوّات والرسالات، من آدم إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد، عليهم جميعًا الصلاةُ والسلام.

فالمسلم لا تكتمل عقيدته إلاَّ إذا آمن بالرسل جميعًا، لا نفرّق بين أحد منهم، قال تعالى: آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرّق بين أحد من رسله [سورة البقرة، آية ٢٨٥]. وهذا هو البعد الإنسانيّ الذي يعطي التسامح في الإسلام مساحات واسعة، يقول تعالى: وأنزل التوراة والإنجيل من قبلُ هدًى الناس، وأنزل الفرقانَ [سورة آل عمران، آية ٢ - ٣]، ويقول سبحانه وتعالى: إني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة [سورة الصف، آية ٦].

والإسلام يؤكد أن المسلم أخو المسلم كما هو حال كل دين وعقيدة، ولكن الرابطة الدينيّة هذه لا تنفي روابطَ شتّى تشكّل قاعدةً للحياة المشتركة بين المسلم والمسيحيّ مثلاً، فهناك الأخوّة الوطنيّة، والإخوّة القوميّة، والإخوّة الإنسانيّة.

وعندما نتعايش ونتسامح فنحن بشر، تجمعنا الإنسانيّة. قال تعالى: ولقد كرّمنا بني آدم، وحملناهم في البرّ والبحر، ورزقناهم من الطيّبات وفضلناهم

على كثير ممن خلقنا تفضيلاً [سورة الإسراء، آية ٧٠]. والانتساب إلى آدم وحواء وشيجة قربى ورحم تجعل من الناس جميعًا أسرةً واحدةً في شبكة واحدة. ومن هذا المنطلق لا بدّ أن تصاغ العلائقُ بين الناس والناس وتتشعّب الأسرةُ الإنسانيّة وتنساح في أرجاء الأرض، فالله سبحانه وتعالى يذكّرنا من خلال الآية الكريمة في قوله تعالى: يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرَمكم عند الله أتقاكم [سورة الحجرات، آية ٣١]. إنّ الخطاب في هذه الآية الكريمة موجَّه إلى الناس، وأيّة كلمة أوسع شمولاً في مدلولها الإنسانيّ من كلمة الناس التي تشمل البشر جميعًا على اختلاف ألوانهم وقوميّاتهم وأديانهم وطبقاتهم ثمّ يأتي تأكيد مَحو كلّ تمييز بينهم مهما كان لونُه: فالكلّ من أب واحد وأمٍّ واحدة، ثمّ تكاثر بنو آدم فكانوا شعوبًا وقبائل. ويأتي أخيرًا تأكيد الهدف من الخلق (لتعارفوا) وهل يكون هناك تعارفٌ إلاّ بتفاهم وتعايش وتآلف وتسامح وتعاون وبصورة خاصة عندما يوضح الخالقُ العظيم صفة المتفوّق عنده من هؤلاء البشر جميعًا، إنّه أتقاهم: إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم؟ وهل التُقى إلاّ العمل الصالح، الذي يقرّب العبد من الله ويحبّبه إليه؟ ألم يقل رسولُ الله محمدٌ بنُ عبدالله صلى الله عليه وسلّم بأن أقرب الناس إلى الله وأحبّهم إليه أنفعُهم لعياله، وعيالُ الله، كما ورد في نصّ الحديث، هم الخلقُ أو الناسُ جميعًا دون حصر ولا تحديد.

فالإسلام واضحٌ كلّ الوضوح في تعاليمه ومواقفه من النظرة الإنسانيّة إلى الناس جميعًا، ومن مبدإ قبوله التعدّديّة الدينيّة، حيث يقف المسلمون من أبناء الديانات الأخرى موقف الاحترام لعقائدهم رغم الاختلاف معهم، ولكنّهم ينطلقون من القاعدة التي تقول: "نتفاهم حول ما اتفقنا فيه، ويعذر بعضُنا بعضًا في ما اختلفنا عليه"، ويسعون جميعًا لقيام تعايشهم على العدل، والمساواة والحوار بالتي هي أحسن والتسامح من كلّ الأطراف. والمسلمُ حين يُقدم على هذا لا يفعله مجاملةً تقتضيها ظروفٌ موقتةٌ وآدابٌ اجتماعيّة. ولا يكون التعايشُ بحال من الأحوال تمييعٌ للمواقف، وخلط للأوراق، ومزجٌ للعقائد وتذويبُها وصبُّها في قالب واحد، لأنّ صاحب العقيدة السليمة لا يقبل بهذا الخلط المريب

الغامض، ويرفض رفضًا بصيرًا واعيًا أن يفرّط في خصوصيّاته ومقوّماته وقيَمه خوفَ أن يوصَم بالتعصّب أو حتّى يظفر بصفة التحرّر من العقد المركّبة. إنّ التعايش الذي يجعل الآخرَ مسلوبَ الهويّة، مختلَّ التوازن، مهتزَّ الكيان، ليس بتعايش وإنّما هو غشٌّ واحتيالٌ وتضليل، وهذا نطلبه من أنفسنا أولاً، ومن أصحاب الديانات السماويّة الأخرى ثانيًا.

فالتعايش عند المسلمين ينطلق من قاعدة عقائديّة، وهو ذو جذور إنسانيّة، ولذلك فإنّ مفهوم التعايش من المنظور الإسلاميّ ليس هو جملة المفاهيم الوضعيّة الحديثة التي صيغت منها قواعد القانون الدوليّ، لانّ المسلم يعتقد أنّ الهدي الإلهيَّ جاءَ عبر سلسلة طويلة من الرسالات والنبوّات كان آخر حلقاتها اليهوديّة فالمسيحيّة فالإسلام. فمن الطبيعيّ أن تكون هذه الأديان الثلاثة أقرب بعضها إلى بعض منها إلى سائر الأديان، ويسمّي القرآن المسيحيّين واليهود (أهل الكتاب) وهكذا يشكّل المسلمُ وأبناءُ الديانات هذه أسرةً واحدة.

وهنا لا بدّ لي من الإشارة إلى أنّ التعايش بين الأديان وأبنائها يفقد جدواه وقيمته، حين يعمل دعاتُه على استغلاله وتوجيهه الوجهة التي لا تخدم الأهداف الإنسانيّة التي هي موضع اتفاق الأطراف الراغبة في التعايش والعيش المشترك. لذلك علينا أن تتوافق أقوالُنا مع أعمالنا وسلوكنا، فيرتقيَ تعايشُنا إلى المستوى الرفيع من التجرّد والإيثار والصدق والإخلاص في العمل لخير بني البشر كافة، وننطلقَ من الثقة والاحترام المتبادلين، ومن الرغبة في التعاون لخير الإنسانيّة في المجالات ذات الاهتمام المشترك، وفي ما يمسّ حياة الناس ومشكلاتهم من قريب، وليس في ما لا نفعَ فيه ولا طائلةَ تحته.

أمام هذا التعايش والحوار ومن أجله أنتم هنا مسلمون ومسيحيّون من طلّاب وأساتذة "كليّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة"، و"معهد القدّيس بولس للفلسفة واللاهوت في حريصا". اجتماعُكم هذا هو نتاجُ لقاء ات تتمّ بين الكليّات والمعاهد الجامعيّة الدينيّة في لبنان. إنكم تردّون زيارةَ طلّاب "كليّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة" لمعهدكم مشكورين، ولكني هنا أؤكّد لكم ضرورة معرفة كلّ منّا الآخرَ وأن تكون هذه اللقاءات لمعرفة الآخر على حقيقته لا كما هي

الصورة المشوَّهة له في أذهاننا. هذه المعرفة تتمّ من خلال الدراسات الجامعيّة، والأنشطة الثقافيّة، والأعمال المجتمعيّة المشتركة، وإقامة المعارض، وزيارة الكليّات والمعاهد الجامعيّة والتعرّف على مكتباهّا وطلاّهّا، والاطلاّع على المنشورات، وتعميق البحث العلميّ في إطار جهود مشتركة للوصول إلى نتائج تدعم أسس التعايش والحوار اللذين هما، في البدء والختام، التعاونُ بين المؤمنين في الأرض على ما فيه الخير والصلاح للإنسانيّة جمعاء. والبحث العلميُّ النـــزيه عن اتصال الأديان وآثار ذلك الاتصال، خطوةٌ صالحةٌ في سبيل السلام العالميّ، والأخوّة الإنسانيّة، التي سعت إليها الروح الدينيّة العالية. وهو بحثٌ يوسّع آفاق المتديّنين، ويدفعهم من التديّن إلى أطهر معانيه، حين أنّه في الوقت نفسه هو واجبٌ علميٌّ لخدمة الحقيقة، يتولاّه الباحثون في تاريخ الأديان ومقارنتها، والحوار بين أبنائها.

إنّ الاشتراك في جهود علميّة ثقافيّة في هذا المجال، يعود بالفائدة على المؤمنين جميعًا، لأنّ هذه الجهود تصبّ في اتجاه تعميق التفاهم بين أهل الأديان، وإشاعة القيَم الإنسانيّة في أوساطهم، وإقامة جسور التقارب الإنسانيّ الذي يعلو على التقارب الفكريّ والثقافيّ.

وليكن هناك تعاون بيننا كمسلمين ومسيحيّين في جبهة واحدة من أجل **المحافظة على سلامة البيئة، والقضاء على التفرقة العنصريّة، ورفع الظلم** بجميع أنواعه وأشكاله عن الشعوب والطوائف والفئات المضطَهدة. أليس كلٌّ هذا مجالاً للتعايش بين المؤمنين؟ ثمّ علينا أن نقوم بعملٍ مشترك **لمحاربة الإلحاد والانحلال الخلقيّ. وتفكّك الأسر، وانحراف الأطفالٍ والعدوان عليهم، ومقاومة كلّ الآفات والأوبئة** التي تهدّد سلامة الفرد والجماعة وتضرّ بالحياة الإنسانيّة.

وينبغي أن يتّسع مفهوم التعايش بين الأديان للقضاء على أسباب التوتّر واضطراب الأمن والسلام وعدم الاستقرار في أنحاءَ عديدة من العالم، فيكون العمل في هذا النطاق، تعايشًا نافعًا ومجديًا وذا تأثير في حياة الناس وواقعهم المعاش، وبذلك يصير التعايش بين الأديان وسيلةً فعّالةً لدعم جهود المجتمع من أجل السلام وإقامة العلاقات السليمة بين الشعوب والأمم واحترام حقوق الإنسان وحرّيته.

وينبغي أيضًا أن يتّجه التعايشُ نحو **إنصاف المظلومين والمقهورين** في الأرض جميعًا دون استثناء، وإلزام كلّ من يمارس القهر والإرهاب على مستوى الدولة أو الأفراد أو الجماعات، بالانصياع إلى تعاليم الأديان السماويّة. فمن أهداف التعايش بين الأديان العملُ **على إقرار مبادئ الحقّ والعدل واحترام كرامة الإنسان** من حيث هو إنسانٌ وكفى. فهذه المبادئ والتعاليمُ هي الجامعُ المشترك بين الأديان.

ختامًا ومن واقع تقديرنا للمخاطر التي تهدّدنا، خصوصًا في هذا البلد لبنان، نرى أنّ التعايش بين الديانتَين الإسلاميّة والمسيحيّة وأبنائهما ضرورةٌ من الضرورات الملحّة التي تفرضها المحافظة على سلامة كياننا، ويُمليها الحرصُ المشتركُ على البقاء الحرِّ الكريم على هذه الأرض.

ومع التوجّه الرباني في قوله تعالى: *قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم* [سورة آل عمران، آية ٦٤]، فهذه الآية قاعدةٌ ذهبيّةٌ للتعايش بين الديانتين، لأنّها تدعو إلى إفراد العبوديّة لله وحده، ورفض الطغيان والجبروت والكبرياء وفرض الهيمنة، وذلك بأن يتّخذ الناسُ بعضُهم بعضًا أربابًا من دون الله يستوحون منهم التعاليم والمبادئ أو يخشونهم أو يخضعون لما يملكونه من قوّة باطشة تؤدي إلى خللٍ في الكيان الإنسانيّ وإلى الفوضى في العالم. ويمكن التعايش بين الأديان إذن من أجل الله وحده، ومن أجل الحياة الإنسانيّة الحرّة الكريمة في ظلّ الإيمان والخير والفضيلة وما فيه مصلحة الإنسان في كل الأحوال. وأخيرًا نردّد قوله تعالى *ولتجدنّ أقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهبانًا وإنّهم لا يستكبرون* [سورة المائدة، آية ٥].

الفصل الثانـــي عشر

وقفة مع تجربة في الحوار الإسلاميّ – المسيحيّ(*)

أصبح الحوار مصطلحًا مهمًّا في العلاقات المسيحيّة الإسلاميّة، وهو جوهر الحياة البشريّة حين يتمّ بين ذوي النوايا الطيّبة. إنّه تقليد حضاريّ، وفعلٌ ثقافيّ رفيع المستوى، ومجال للتعارف والتفاهم، وتحقيق العدالة والرأفة والتسامح في التعامل.

إذا استعرضنا تاريخ الحوار الإسلاميّ المسيحيّ منذ مطلع القرن العشرين إلى وقتنا الحاضر، نرى أنّ هذا الحوار ظهر في أشكال متعدّدة هي:

١- **لقاءات الحوار الإسلاميّ ـ المسيحيّ الفرديّة** بين المتخصّصين والعلماء، حيث دار هذا الحوار مع مستشرقين، ورهبان وقساوسة مسيحيّين من جهة، وعلماء ومتخصّصين مسلمين من جهة ثانية، كما هو حال حوارات الشيخ طاهر الجزائريّ مع المستشرقين، وحوارات أحمد ديدات مع القساوسة.

٢- **مؤتمرات وندوات وملتقيات الحوار الإسلاميّ ـ المسيحيّ**، وهي أكثر ما سجّله تاريخ القرن العشرين على مستوى الحوارات الجماعيّة بين المسلمين والمسيحيّين، ونقصد بالمؤتمرات والندوات والملتقيات هذه أنّها تلك التي "تجري بين المسلمين والمسيحيّين لبحث قضيّة أو عدّة قضايا للدراسة والحوار، حيث تكون الجهة المنظّمة لهذه اللقاءات إمّا حكوماتُ دول، أو وزاراتٌ تابعة لها، أو تجمّعات دينيّة كالمؤسّسات والهيئات والروابط أو جمعيّات الدعوة الإسلاميّة".

(*) مقال في مجلّة المشرق، السنة الرابعة والسبعون، تموز - كانون الأول ٢٠٠٠م.

ومن خلال استعراضي لما يقرب من أربعين مؤتمرًا ولقاءً وندوة، تبيّن لي أنّ القسم الأكبر منها كان بتنظيم وإشراف ودعوة جهات مسيحيّة.

٣- الرسائل المتبادلة بين علماء المسلمين ورجال الدين المسيحيّ، وأذكر على سبيل المثال: رسالة الشيخ أبو الأعلى المودوديّ جوابًا على رسالة البابا بولس السادس، وكذلك رسالة الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ردًّا على رسالة د. ميجيل دي إيبالسا سكرتير جمعيّة الصداقة الإسلاميّة المسيحيّة في إسبانيا.

أمّا موضوعات الحوار الإسلاميّ – المسيحيّ فكانت تدور حول:

أ – الديانة المسيحيّة، وكلّ ما يتعلّق بعقيدهّا والنبيّ عيسى عليه السلام.

ب – الديانة الإسلاميّة، وكلّ ما يتعلّق بعقيدهّا وأحكامها ونبيّها محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

ج – بحث نقاط التلاقي بين أتباع الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة، وبحث سبل التعايش المشترك بينهما.

د – دراسة أوضاع البشريّة، والمشاكل التي تواجهها وبحث سبل علاجها، من إيقاف الحروب، وفضّ المنازعات، وتقديم المساعدات للمحتاجين، والتعاون في شتّى مجالات الحياة الإنسانيّة.

ومن استعراض الموضوعات الحواريّة التي قدّمت نرى أنّ ما يتعلّق بالديانة المسيحيّة أخذ المساحة الأوسع في هذا الحوار، وذلك لأهمّيّتها ولكونها تتعلّق بقضيّة العقيدة، وهي أهمّ ما يشغل العقل الإنسانيّ عمومًا، لأنّ أوّل لقاء يتمّ بين أتباع الديانات يكون لبحث القضايا المتعلّقة بعقيدة كلّ منهم، ولذلك كانت العقيدة المسيحيّة محورًا كبيرًا يلتقي المسلمون والمسيحيّون لدرسه.

أمّا الديانة الإسلاميّة وموضوعاهّا فقد أخذت المرتبة الثانية في مساحتها بعد الموضوعات المتعلّقة بالديانة المسيحيّة.

وهناك موضوع التعايش السلميّ والعيش المشترك الذي أخذ حيّزًا من الحوار الإسلاميّ – المسيحيّ، فهو موضوع قديم حديث، إلاّ أنّه في القرن

العشرين أخذ مفهومُه دلالات جديدة، لم تكن موجودة سابقًا في علاقات الأديان وأتباعها، حيث اتّجه المفهوم الجديد للتعايش السلميّ نحو علاقات الدول والشعوب بعضها مع بعض، وذلك ضمن نظام وقوانين هيئة الأمم المتّحدة، إذ وُضعت القوانين الدوليّة داخل هذه المنظّمة وصيغت طبيعة العلاقات بين الدول والشعوب.

لقد تناول موضوع التعايش السلميّ، بالمفهوم الحديث، عدّة قضايا، أهمُّها:

١ — السلام العالميّ.

٢ — حفظ البشريّة من أخطار الحروب المدمِّرة.

٣ — التعاون على إنهاء الصراعات الطائفيّة والعرقيّة والإقليميّة.

٤ — التعاون على المحافظة على البيئة السليمة في الكرة الأرضيّة.

ولقد عُقدت مؤتمرات وندوات في هذا المجال، وطُرحت هذه الأمور من وجهة النظر الإسلاميّة والمسيحيّة، ولكنّ الحوار في هذا المجال طَرح تساؤلات متعدّدة، منها:

- مَن يهدّد السلام العالميّ؟
- مَن يثير النعرات الطائفيّة والعرقيّة والإقليميّة؟
- مَن يعلن الحروب المدمّرة؟
- مَن يُفسد البيئة؟
- مَن الذي أنفق على التسلّح في عام ١٩٨٦، مبلغ (٧٥٠) مليار دولارًا أمريكيّ، في حين مات في ذلك العام من الناس ما يُقدَّر بـ (٨٠) مليون إنسان بسبب الجوع وسوء التغذية؟

ولعلّ هذا كان له انعكاساته السلبيّة على الحوار الإسلاميّ- المسيحيّ، خصوصًا وأنّ مَن يقوم بهذه الأعمال معروفة هويّته ودوره وصورته في ذهن الآخر.

ويبدو أنّ مفهوم التعايش الإسلاميّ — المسيحيّ ينبغي أن يتّسع للقضاء

على أسباب التوتّر واضطراب حبل الأمن والسلام وعدم الاستقرار، ويشمل أيضًا العمل المشترك لمحاربة الإلحاد، والانحلال الخلقيّ، وتفكّك الأسرة، واستغلال الأطفال، ومقاومة كلّ الآفات والأوبئة التي تهدّد سلامة كيان الفرد والجماعة وتُضرّ بالحياة الإنسانيّة.

أمّا المواقف من الحوار الإسلاميّ — المسيحيّ، فلا شكّ أنّها تباينت عند كلّ من الطرفين على حدّ سواء، حيث انقسمت هذه المواقف بين مؤيّدٍ للحوار داعمٍ له، وبين معارض له، يرفض استمراريّته، ويطالب بالحذر منه ومن نتائجه التي قد يوصل إليها.

لقد تردّد مسيحيّون ومسلمون في المشاركة وفي اقتحام ساحة الحوار، وكان التردّد مبرَّرًا في بعض الأحيان، فمنهم مَن اعتقد أنّ الحوار هو شكل من أشكال التوفيق الدينيّ بين الديانتين، ومنهم مَن اعتبره وسيلة للدعوة أو التبشير، بل إنّ بعضهم رأى فيه نفاقًا أو زينة مجرّدة تختفي تحتها نوايا سياسيّة سيّئة.

ولكن رغم تباين المواقف، فإنّنا نستطيع القول إنّ هناك جمهورًا كبيرًا يؤيّد هذا الحوار واللقاء. ويبدو أنّ بعض المعارضين وخصوصًا من المسلمين يتّخذون موقفًا سلبيًّا للارتباط ذهنيًّا وتاريخيًّا وواقعيًّا بين الاستعمار الغربيّ والديانة المسيحيّة كما يُصرِّحون.

وانطلاقًا من خبرات الحوارات السابقة، ومن العمليّات التقييميّة، ومراجعة واستذكار الصيغ والأساليب والممارسات السابقة التي اعتمدت على تحديد موضوعاتها الحيويَّة، وحشد الطاقات من أجل التصدّي للأخطار التي تواجه مجتمعاتنا، كانت إحدى السبل هي **الإنطلاق نحو الجامعة وكلّيّاتها ومعاهدها** لتخرج من عزلتها، من أبراجها العاجيّة، ولتتوجّه نحو مجتمعها وتعمل على المساعدة في حلّ مشاكله.

إنّ الخروج من هذه العزلة يحتّمه ما يواجهه الإنسان اللبنانيّ من مشاكل، وكذلك المجتمعات الأخرى، حيث هناك مناخات مفعمة بالمخاوف، ومشاعر العنصريّة والكراهيّة، ونزعات الهيمنة وإهدار كرامة الإنسان، هذا

الإنسان الذي كرّمه خالقُه وجعله خليفته في الأرض، قال تعالى *وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة* [سورة البقرة، آية، ٣٠] لكنّ هذا الإنسان تعرَّض للظلم والتعسّف والاستغلال، وتفشّت في المجتمعات اتّجاهات مادّيّة. وانصرافٌ عن الدين، وفساد منتشر في جوانب متعدّدة في المجتمعات، كلّ هذا يحتّم علينا، كمؤسّسات تربويّة جامعيّة دينيّة إسلاميّة، أن نعزّز التفاهم فيما بيننا، ونقدّم إلى هذه البشريّة ما تحويه الديانتان من قِيَم دينيّة تُسعد البشريّة، ونبني شخصيّة الإنسان المتوازن القادر على مواجهة ضغوط العصر المتزايدة، وتتّضح ضرورة لقاء المؤمنين بهذه القِيَم لإزالة سوء الفهم بين أتباع الديانتين، وتعزيز تعارفهم، وُصولاً إلى تعاونهم على البِرّ والتقوى، ومواجهة الأخطار التي تهدّد البشريّة.

من هنا وأمام كلّ هذا، كانت مبادرة **كلّيّة الإمام الأوزاعيّ للدراسات الإسلاميّة**، وهي المبادرة الأولى من نوعها على الصعيد اللبناني منذ عهد الاستقلال، **بدعوة الكلّيّات والمعاهد الجامعيّة الدينيّة في لبنان إلى التداول والتحاور** حول مواجهة المشكلات والتحدّيات التي تعترض المجتمع، ولتنــزل هذه المؤسّسات التربويّة الجامعيّة من أبراجها العاجيّة، لتعايش مشاكل المجتمع، وتُسهم في إعداد أفراده على أساس تكامليّ للطبيعة الإنسانيّة، من خلال الاهتمام بحاجات الإنسان وجوانبه الجسميّة والعقليّة والروحيّة.

لبّت الدعوة اثنتا عشرة كلّيّة ومعهدًا جامعيًّا دينيًّا، وكان اللقاء الأوّل فيما بينها يوم الثلاثاء الموافق ١٦/١٢/١٩٩٧م[٢٩٧].

استمرّت الاجتماعات بين ممثّلي هذه الكلّيّات والمعاهد في مراكزها بشكل دوريّ وفاعل ونشط.

---

(٢٩٧) وهذه أسماء المؤسّسات المشاركة (بالترتيب الأبجديّ): كلّيّة الاجتهاد والعلوم الإسلاميّة في الجامعة الإسلاميّة في لبنان، كلّيّة الإمام الأوزاعيّ للدراسات الإسلاميّة، كلّيّة الشرق الأوسط، كلّيّة العلوم اللاّهوتيّة للدراسات الرعائيّة في الجامعة الأنطونيّة، كلّيّة اللاّهوت الحبريّة في جامعة الروح القدس، بالكسليك، كلّيّة اللاّهوت للشرق الأدنى، مركز الدراسات الإسلاميّة – المسيحيّة – في جامعة البلمند، معهد الدراسات الإسلاميّة، المعهد العالي للدراسات الإسلاميّة في جمعيّة المقاصد الخيريّة الإسلاميّة، المعهد العالي للعلوم الدينيّة في جامعة القدّيس يوسف، معهد القدّيس بولس للفلسفة واللاّهوت بحريصا. وكلّيّة الشريعة في جامعة بيروت الإسلاميّة (انضمت فيما بعد). وكذلك معهد الدعوة الجامعيّ للدراسات الإسلاميّة.

وهنا لا بدّ لي من الإشارة إلى أخلاقيّات ومناخات الحوار في اللقاءات المستمرّة لهذه الكلّيّات والمعاهد، والتي شارك فيها الجميع بفاعليّة وجهد كبيرين، وقام حوارها على الاحترام المتبادل، والصدق، والصراحة، والوضوح، والمحبّة، والثقة، والصبر، والدقّة، واللطف.

إنطلقنا من جوامع مشتركة بين الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة، من دعوة إلى مواجهة التحدّيات بالوعي المتزايد والتكاتف والتعاون. وكنّا نتبادل الأفكار والحقائق والمعلومات والخبرات التي تزيد من معرفة كلّ فريق بالآخر بطريقة موضوعيّة. كان هناك تلاق واختلاف، ولم يفسد الودّ الاختلافُ في قضيّة، واحتفظ كلّ طرف بمعتقداته وثوابته، وسعينا بكلّ الوسائل ليعرف كلّ منّا الآخر على حقيقته، لا كما هي الصورة النمطيّة الذهنيّة المشوّهة عن الآخر والقائمة على أحكام مسبقة. لم يكن هناك انطواء كلٌّ على جماعته ومصالحه، بل ساد اللقاء روح المشاركة، والتعايش، والتعاون، والالتقاء على جوامع مشتركة، والحرص على الانفتاح والتعلّم من الآخر على جميع الأصعدة.

ولقد **فتحت هذه اللقاءات أبوابًا للصداقات فيما بيننا**، وحقّقنا تفهّمًا متبادلاً، واكتشفنا أخوة لنا في الإيمان، وتشاركنا في المسرّات والآلام.

كنّا نتحاور بالتي هي الأحسن، يقول تعالى *ولا تُجادِلوا أهلَ الكتابِ إلّا بالتي هي أَحْسَن* [سورة العنكبوت ٢٩: آية، ٤٦].

وهنا أقف، في هذه الآية الكريمة، على (أهل الكتاب) و(بالتي هي أحسن)، فالقرآن الكريم أشار، في كثير من آياته، إلى أصحاب الجنّة، وأصحاب النار، وأصحاب الكهف، ولم يقل أصحاب الكتاب، بل قال أهل الكتاب، فالأهل الزوج والزوجة والأولاد... إلخ، أي الأسرة، فنحن، مسلمون ومسيحيّون، أسرة واحدة يجمعنا الإيمان بالله، والوحي الإلهيّ، والكتاب. أمّا الحوار بالتي هي أحسن، فهو أن نختار الأحسن والأفضل في التعامل، الأحسن في الطريقة، في المنهج، في الأسلوب، في اختيار العبارات، إنّه التعبير بالأسلوب الهادئ السلميّ، حيث يُوصِل كلّ هذا إلى نتائج جيّدة، بحيث يتحوّل الجميع إلى أصدقاء.

كان لقاؤنا وتقاربنا على الكلمة السواء، كلمة الحقّ والعدل التي تسوّي بين الجميع، يقول سبحانه وتعالى قُلْ يا أهلَ الكتاب تَعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاَّ نعبُد إلاَّ الله [سورة آل عمران ٣: آية ٦٤].

وبكلمة مختصرة كان لقاءاتنا أخويّة ننهل فيها من مَعين الرسالات السماويّة بما اشتملت عليه من عِبَر وعظات وأخلاقيّات تقرّب الإنسان من أخيه الإنسان.

لقد ركّز الجميع على ضرورة معرفة كلٍّ منّا الآخَر من خلال الدراسات الجامعيّة والأنشطة الثقافيّة، وزيارة المكتبات الجامعيّة والاستفادة منها، والاطّلاع على المنشورات والأبحاث المشتركة، والمعارض، وتبادل الخبرات بين أعضاء هيئات التدريس، والزيارات الاجتماعيّة والعلميّة، والأعمال المجتمعيّة المشتركة.

ولا شكّ في أنّ مثل هذه الأمور ضروريّة لأنّنا وجدنا جهلاً من الطرفين بالآخر وبمؤسّساته، وأنّ علينا أن نبذل جهدًا متواصلاً لتوسيع آفاق معرفتنا في هذا المجال.

إمتدّت اللقاءات والاجتماعات عامًا كاملاً، وحَصْحَصَ لدى الجميع إحساسٌ مشترك بأنّ ما آلت إليه الأوضاع في لبنان، وخصوصًا بعد حرب شرسة مدمّرة دامت ستّة عشر عامًا، كانت لها آثار كبيرة في التربية والتعليم في هذا البلد، مع إدراكنا ما للتربية والإعلام من دور فعّال ومؤثّر في المجتمع.

فأزمات التربية والإعلام تستوجب الأولويّة في اهتماماتنا، والحاجة ماسّة في عصرنا الراهن، وفي لبنان بشكل خاصّ، إلى تطبيق ما تحويه الديانتان السماويّتان الإسلاميّة والمسيحيّة من قِيَم، على أنفسنا، وفي مختلف النواحي الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة في عصر لا يكاد يُعمَل فيه بالتعاليم السامية المنصوص عليها في كتبنا المقدّسة.

وكان **نتيجة هذه اللقاءات والاجتماعات**، اتّفاقُ ممثّلي الكلّيّات والمعاهد الجامعيّة الدينيّة على أن يُعقَد مؤتمرُها الأوّل تحت شعار (**القِيَم في التربية والإعلام**).

عُقد هذا المؤتمر في بيروت يومَي الأربعاء والخميس ٢، ٣، كانون الأوّل ١٩٩٨م في قاعة اليونسكو، وحاضر فيه مجموعة من رجال الفكر المتخصّصين بالتربية والإعلام ممّن رشّحتهم الكلّيّات والمعاهد، ويعتبر هذا المؤتمرُ الأوّلَ من نوعه في تاريخ لبنان الحديث، الذي يتمّ فيه لقاء الكلّيّات والمعاهد الجامعيّة الدينيّة الإسلاميّة والمسيحيّة.

حرصنا بعد عقد هذا المؤتمر على التطبيق العمليّ للتوصيات والقرارات التي اتّفقنا عليها، فعُقد لقاءٌ طالبيّ بين طلاّب كلّيّة الإمام الأوزاعيّ للدراسات الإسلاميّة، وطلاّب معهد القدّيس بولس للاّهوت والفلسفة في حريصا، وكان هذا اللقاء نوعيًّا ومميّزًا.

تضمَّن اللقاء جولة في المعهد لتعرُّف معالمه، واجتمع الطلبة في قاعة المحاضرات، وتحاوروا مع مدير المعهد الأب الدكتور جورج خوّام، والأستاذ توفيق حوري رئيس مجلس الأمناء في كلّيّة الإمام الأوزاعيّ، والأب الدكتور جوزيف معلوف، والدكتور محمّد منير سعد الدين، والأب الدكتور بولس صفير عميّد كلّيّة اللاّهوت الحبريّة في جامعة الروح القدس. ثمّ جرى أيضًا حوار بين الطلبة، وتبادلوا العناوين للزيارات والاتّصالات.

لم يقتصر الأمر على اللقاء في معهد القدّيس بولس، بل تلقّى المسؤولون عن الكلّيّات والمعاهد الدعوات للمشاركة في أنشطة جامعة الروح القدس، وكلّيّة الإمام الأوزاعيّ، ومعهد الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف، ولتبادُل الأساتذة للتدريس. كما أنّنا اجتمعنا في معهد طرابلس الجامعيّ، وقدَّم أساتَذةُ مقرّر الأديان في كلّيّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة ومركز الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة في جامعة البلمند، كيف يدرَّس هذا المقرّر وما هِيَ أهدافه.

وكذلك قام طلاّب كلّيّة الإمام الأوزاعيّ بزيارة لمعهد الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف ومكتبتها. ونحن بصدد لقاءات أُخرى، ونُعدّ لمؤتمر في العام ٢٠٠٠.

هذه نماذج من التعايش والحوار المشترك، علينا أن نسعى إليها لنــزداد معرفةً بعضنا لبعض كما نحن في الواقع، ونمدّ حسور التفاهم والألفة بين أبناء الوطن الواحد، وفي العالم أجمع، ونجلو الصورة النمطيّة الذهنيّة المشوَّهة عن بعضنا عند بعضنا الآخر.

ونحن بحاجة، من خلال جامعاتنا، وكلّيّاتنا ومعاهدنا والمجتمع الذي أنشأها، إلى السعي لإقامة مؤسّسات حواريّة إسلاميّة مسيحيّة تتكلّم بلغة مشتركة وطروحات واضحة، وللوقاية من استخدام الدين سلاحًا للصراع بين الأمم، وللحيلولة دون وقوع محاولات الفتنة والفرقة داخل المجتمعات، وللتعاون والحوار الحقيقيّ والتسابق في الحقّ بين المؤسّسات التربويّة الإسلاميّة والمسيحيّة، وللعمل على إسقاط الصورة المزيّفة عن الآخر، وتصحيح الصور الذهنيّة، وتحقيق التعارف والفهم، والتسليم بمبدأ الاختلاف، وأن نتعاون جميعًا على البرّ والتقوى، ومقاومة الفساد والطغيان والهيمنة والظلم الاجتماعيّ، في عالم تستهدف تحدّياته المؤمنين في الديانات، ممّا يتطلّب منّا مسلمين ومسيحيّين عملاً مشتركًا لبناء عالم أكثر إنسانيّة، وهذا يلقي على كواهلنا مسؤوليّة كبيرة.

ثمّ لا بدّ من الإشارة في الختام إلى أنّ هناك تحدّيًا مطروحًا علينا جميعًا، وهو مدى التطبيق العمليّ لوعود الحوار، ولنوايا المتحاورين، ممّا يتطلّب جهودًا صبورة ومستمرّة، حتّى يصبح الحوار ضرورة لا يُستغنى عنها.

الخاتـــمة

عندما يقف الإنسان أمام التاريخ يستنطقه العلاقة بين المسلمين والمسيحيّين في ظـــلّ الدولـــة الإسلاميّة يجد إيجابيات وسلبيات، وإذا وقف عند السلبيات يجدهـــا بعيـــدة عن الأديان السماوية وهي صادرة عن أفراد أو عامة من الناس، أو نتـــيجة فعل أورد فعل، ونحن لا نريد أن نقف عند السلبيات لأن هدفنا أن نجمع ولا نفـــرق، وأن نســـتفيد في مجتمعنا المعاصر من الإيجابيات فلا نبقى متفرقين كيف لا والعالم أصبح قرية صغيرة والكل يتجه إلى الاتحاد في مظاهر متعددة من حياته، ونحن أولى بذلك وتجمعنا روابط متعددة تشدنا لأن نكون جسمًا واحدًا، فالأخطار التي تواجهنا لا تفرق بين مسلم ومسيحيّ، فالكل أمام الخطر سواء.

وهـــل هناك أروع من تلك الممارسات الإيجابية في العيش المشترك في ظـــلّ الدولة الإسلاميّة حيث نرى حرية المعتقد، وممارسة الشعائر وصون أماكن العبادة، والاحتفال بالأعياد، ومواجهة الأخطار المشتركة، وزيارة الخلفاء للأديرة وكبار المسؤولين الآخرين، وتكريمهم لرجال الدين المسيحي، ولعلمائهم، واعتلاءهم المناصـــب العالية في الدولة، وضمانهم الإجتماعيّ، وحماية المسيحيّين من الظلم الداخـــليّ والخـــارجيّ بمواقف يشهد عليها التاريخ من المؤرخين المسلمين وغير المســـلمين، ثم عدالـــة القضاء الإسلامي، وتلك الأخلاق الحربية الإسلاميّة التي كانت أنموذجًا يحتذى.

إنها لمحة سريعة وجزء من كل عن حياة مشتركة بين المسلمين والمسيحيّين، فتمـــتع المسيحيون بحقوقهم "ونعموا بحماية الإسلام، وأدوا واجباهم النقدية، بل ســـاهموا مساهمة فعالة في بناء الدولة الإسلاميّة وتوطيد أركانها وإعلاء شأنها من

الـــنواحي السياسيّة والعلميّة والدينيّة. ولا غرابة في ذلك فالمسيحيّون هم سكان البلاد، وإنهم فيها مواطنون تتوجب عليهم خدمتها بصدق وولاء[٢٩٨].

هـــذا وإن العيـــش المشترك وهذه السلوكيات من قبل المسلمين تجاه المســـيحيّين لم تـــأت من فراغ، وهي بقدر ما تعطي فكرة واضحة واستنتاجًا سليمًا من تطبيق الشريعة الإسلاميّة على الأرض تقدم لنا أيضاً صورة عن أسلوب الحيـــاة المشتركة كما أدى إليه هذا التطبيق بعد أن خرجت المبادئ من على الورق إلى حنايا المجتمع، ولكنها عندما تواجه خلجة الحياة لا بدّ أن تؤثر فيها وتـــتأثر بهـــا. فالمبادئ الإسلاميّة أدخلت المسيحيّين إلى صميم المجتمع الإسلاميّ وجعلـــتهم طـــبقة من طبقاته ولكن هذه الطبقة لم تكن شيئًا ماديًا يوضع إلى جـــانب أقســـام أخرى فيسد فراغًا ماديًا وحسب بل ساهمت في صنع مجتمع كـــامل يحمل تاريخًا وحضارة ومميزات بشرية خاصة لا بدّ من أن تتفاعل مع التشـــريع الجديـــد والمجتمع الجديد فيغير فيه ويغير فيها بالقدر الذي يسمح به الدين الجديد والأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة التي واجهتها وبقدر آخـــر يزيد وينقص بتغير تلك الأوضاع وتنوعها في مواجهتها لألوان مختلفة من مظاهـــر الإجـــتماع والسياسة والاقتصاد واستيطانها لأعداد جديدة من أهل الكـــتاب تختـــلف نشاطاتهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة شدة ولينًا وتقدمًا وازدهارًا وتختلف بلدانهم من حيث الرخاء والفقر وقسوة الحياة وليونتها من الشمال إلى الجنوب إلى الشرق والغرب[٢٩٩].

كل هذا ساعد في أن تكون العلاقات بين المسلمين والمسيحيّين وثيقة، لا يعيشون متعزلين عن مواطنيهم في أحياء خاصة بل اشتركوا مسلمين ومسيحيّين في الحيـــاة العامـــة، وفي إشادة حضارة عربية إسلاميّة، كانت مصدر إشعاع وإنارة لعالم عصرها.

---

[٢٩٨] المطران ميشيل يتيم: الأرشمندريت أغناطيوس ديك: تاريخ الكنيسة الشرقية، ص ١٧٠.

[٢٩٩] حسن الزين: أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، مرجع سابق، ص ٤٣.

المراجع

القرآن الكريم

الكتاب المقدّس

١ ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م.

٢ ـ ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، مكتبة دار الحياة، د. ت.

٣ ـ أحمد عمر الحوفي: سماحة الإسلام، دراسات إسلامية ٤، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، د. ت.

٤ ـ آدم متز: الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمّد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، مطبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر، ١٣٧٧ هـ / ١٩٧٧م.

٥ ـ إدوار غالي الذهبي: أقول الدعاة الفتنة الطائفية، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٠م.

٦ ـ أسامة بن منقذ: الاعتبار، تحرير فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠م.

٧ ـ أسعد سحمراني: الإسلام بين المذاهب والأديان، بيروت، دار النفائس، ط ٢، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م.

٨ ـ البخاري: الأدب المفرد، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩م.

٩ - البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، د. ت.

١٠ - بسام داود عجك: الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، د.م، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨م.

١١ - (المطران) بشارة الراعي: في تجديد العيش المشترك، المؤتمر الأول ١٢ - ١٤ أيار ١٩٩٤م، مركز الدراسات والابحاث الرعوية في دير مار الياس، أنطلياس، ١٩٩٤م.

١٢ - ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبيشي، ط ٥، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

١٣ - ابن تيمية الحراني: الرسالة القبرصية، رسالة ابن تيمية إلى سرجواس ملك قبرص، تحقيق علاء دمج، بيروت دار ابن حزم، ط ٢، ١٩٣م.

١٤ - جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة حسني زينه، بيروت، دار المشرق، ط ١، ١٩٩٠م.

١٥ - ابن جبير: الرحلة، بيروت، دار التراث العربي، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م.

١٦ - جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، بيروت، دار منشورات مكتبة الحياة ١٩٦٧م.

١٧ - ابن أبي حاتم: تقدمة المعرفة، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

١٨ - ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة، بيروت، دار الجيل، د.ت.

١٩ - حسن الزين: أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، بيروت، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م.

٢٠ - ـــــــ : الأوضاع القانونية للنصارى واليهود في الديار الإسلاميّة، بيروت، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ط ٢، ٢٠٠٠م.

٢١ ـ حسان حلاق: دراسات في الحضارة الإسلاميّة، بيروت، دار النهضة العربية، ط ١، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م.

٢٢ ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، دار المأمون بمصر، د. ت.

٢٣ ـ رفائيل بابو اسحق: أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٦٠ م.

٢٤ ـ ــــــ: تاريخ نصارى العراق منذ انتشار النصرانية في الأقطار العراقية إلى أيامنا، بغداد، مطبعة المنصور، ١٩٤٨م.

٢٥ ـ سعاد أبو الروس سليم: العلاقات الإسلاميّة المسيحية عبر التاريخ، في الحوار والحياة المشتركة بين الطوائف والأديان، النموذج اللبناني، بيروت، مؤسسة الحريري، ١٩٨٦م.

٢٦ ـ سعود المولى: الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة، بيروت، دار المنهل اللبناني، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م.

٢٧ ـ سيد أمير علي: روح الإسلام، ترجمة عمر الديراوي، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٧، ١٩٨١م.

٢٨ ـ سيد محمّد صادق الحسيني، غريغوار منصور مرشو: نحن والآخر، بيروت، دمشق، دار الفكر المعاصر، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م.

٢٩ ـ الشابشتي: الديارات، تحقيق كوركيس عواد، منشورات مكتبة المثنى ببغداد، مطبعة المعارف ببغداد، ط ٢، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦م.

٣٠ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، د. ت.

٣١ ـ طه الولي: عبد الرحمن الأوزاعي، شيخ الإسلام وإمام أهل الشام، بيروت، دار صادر، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م.

٣٢ ـ عادل تيودور خوري: الفاتيكان ومبادىء الحوار الإسلاميّ

المســـيحيّ»، في تجديد العيش المشترك، المؤتمر الأول ١٢ - ١٤ أيار، ١٩٩٤م، مركز الدراسات والخدمات الرعوية، دير مار الياس، أنطلياس، ١٩٩٤م.

٣٣ - عـــبد الـــرحمن حسن حبنكة الميداني: أسس الحضارة الإسلاميّة ووسائلها، دمشق، بيروت، دار القلم، ١٤٠٠ هـــ / ١٩٨٠م.

٣٤ - عـــبد الـــرحمن علي الحجي: الحضارة الإسلاميّة في الأندلس، بيروت، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٣٨٩ هـــ / ١٩٦٩م.

٣٥ - عـــبد العزيز بن عثمان التويجري: الحوار من أجل التعايش، القاهرة، بيروت، دار الشروق، ط ١، ١٤١٩ هـــ / ١٩٩٨م.

٣٦ - علي عبد الواحد وافي: بحوث في الإسلام والإجتماع، القاهرة، دار نهضه مصر للطبع والنشر، ١٩٧٧م.

٣٧ - غريغوريوس أبي الفرج أهرون المعروف بابن العبري: تاريخ مختصر الدول، الحازمية، دار الرائد اللبناني، ١٤٠٣ هـــ / ١٩٨٣ م.

٣٨ - فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلاميّة من الفـــتح العـــربي إلى نهاية العصر الفاطمي، د. م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

٣٩ - فيليب حتي وآخرون: تاريخ العرب (مطول)، د. م، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٤٩م.

٤٠ - فهمي هويدي: مواطنون لاذميون، القاهرة، بيروت، دار الشروق، ط ٣، ١٤٢٠ هـــ / ١٩٩٩م.

٤١ - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تصحيح أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، د. م، مطبعة دار الكتب، ١٣٨٠ هـــ، ١٩٦٠ م.

٤٢ - القفطـي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، بيروت، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.

٤٣ - ابـن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٨١م.

٤٤ - ابـن كثير الدمشقي: مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمّد علي الصابوني، بيروت، دار القلم، جده، مكتبة جدة، ط ٥، د.ت.

٤٥ - (المطران) كيرتس سليم بسترس: أفكار واراء في الحوار المسيحيّ الإسلاميّ والعيش المشترك، جونية، المكتبة البولسيّة، ١٩٩٩م.

٤٦ - لويـس شـيخو: علماء النصرانية في الإسلام، جونية، المكتبة البولسيّة، روما، المعهد البابوي الشرقي، ١٩٨٣م.

٤٧ - ـــــــ: وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام (٦٢٢ - ١٥١٧)، حققـه الأب كميل حشيمة اليسوعيّ، جونية، المكتبة البولسيّة، ذوق مكـايل، الـتراث العربي المسيحيّ، رومة، المعهد البابوي الشرقي، ١٩٨٧م.

٤٨ - ـــــــ: شعراء النصرانية بعد الإسلام، بيروت، دار المشرق ط ٥، ١٩٩٩م.

٤٩ - محمّـد حسن شندب: الحضارة الإسلاميّة في بغداد في النصف الخامس الهجري ٤٦٧ - ٥١٢ هـ، بيروت، دار النفائس، ط ١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٥٠ - محمّد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط ٥، ١٤١٧ هـ / ١٩٨٧م.

٥١ - محمّـد السماك: الحوار المسيحيّ الإسلاميّ، وجهة نظر إسلاميّة، مرايا متقابلة، مركز الدراسات المسيحيّة الإسلاميّة، جامعة البلمند، ١٩٩٧م.

٥٢ - محمّد عبده: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، د. م، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٨٨م.

٥٣ - محمّد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، القاهرة،لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٤م.

٥٤ - محمّد مهدي شمس الدين: المسيحيّة في المفهوم الثقافي الإسلاميّ المعاصر، محاضرة ألقيت في المؤتمر الدولي في العاصمة الإيطالية، روما، في الفترة الممتدة ما بين ٦ - ٨ مايو، ٢٠٠٠ م.

٥٥ - محمود الشربيني: القضاء في الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٩٩ م.

٥٦ - مصطفى الرافعي: حضارة العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ٣، ١٩٨١م.

٥٧ - مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، بيروت، الرياض، دار الوراق للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م.

٥٨ - المقري: نفح الطيب، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، دار المأمون بمصر، د. ت.

٥٩ - المقريزي، الخطط، بيروت، دار صادر، د. ت.

٦٠ - ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، بيروت، دار الثقافة، ط ٣، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

٦١ - ابن النديم: الفهرست، القاهرة، مطبعة الاستقامة، د. ت.

٦٢ - ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.

٦٣ - الواقدي: الطبقات الكبرى، تصحيح وطبع إدوار سخو، ليدن، مطبعة بريل، ١٣٢٢ هـ.

٦٤ - أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم: الخراج، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، ط ٢، ١٣٨٣ هـ.

٦٥ - يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلاميّ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣م.

السيرة الذاتيّة للمؤلّف

الدكتور محمّد منير سعد الدين

من مواليد عام ١٩٣٣

أوّلاً: المؤهلات العلمية:

١ - إجازة في الآداب - إختصاص تاريخ.

٢- دبلوم دراسات عليا في التاريخ.

٣ - الدبلوم العامة في التربية.

٤ - الدبـــلوم الخاصة (دراسات عليا) في الإدارة والإشراف الفني في التعليم.

٥ - ماجستير في أصول التربية.

٦ - دكتوراه في الدراسات التربوية والإسلاميّة.

ثانيًا: الرتبة العلمية:

- أستاذ.

ثالثًا: مؤلفاته وأبحاثه:

أ - الكتب المنشورة:

١ - الإعلام: قراءة في الإعلام المعاصر والإعلام الإسلامي.

٢ - العلماء عند المسلمين مكانتهم ودروهم في المجتمع.

٣ - دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين.

٤ - التربية البيئية.

٥ - دراسات في التربية الإعلامية.

٦ - المدرسة الإسلاميّة في العصور الوسطى.

٧ - المناهج العلمية في كتابة الرسائل الجامعية.

٨ - التلوث الضوضائي والتربية البيئية.

ب - الأبحاث:

- له عدة أبحاث نشرت في المجلات في لبنان والعالم العربي منها:

I - مجلة أوراق جامعية، تصدر عن رابطة الأساتذة في الجامعة اللبنانية، بيروت.

١ - البحث العلمي ومشكلاته، العدد ٣، ٤، السنة الثانية، ربيع وصيف ١٩٩٣.

٢ - العوائد اللبنانية في ختام الدروس، العدد ٥، السنة الثانية، خريف ١٩٩٣.

٣ - المكتبة المدرسية عند المسلمين في العصور الوسطى، العدد ٦، ٧ السنة الثانية، شتاء وربيع ١٩٩٤.

٤ - التلوث البيئي في لبنان، واقع ومشكلات، تربية مواجهة وحلول، العدد ١٢، ١٣، السنة الرابعة، ١٩٩٦م.

II - مجلة التراث العربي، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

١ - دور الكتاب والمساجد عند المسلمين، العددان، ٣٩، ٤٠، السنة العاشرة، شوال ١٤١٠ هـ - نيسان (أبريل) ١٩٩٠م، ومحرم ١٤١١ هـ تموز (يوليو) ١٩٩٠م.

٢ - الزوايا والخوانق الصوفية والمكتبات في التراث، العدد ٤١، السنة

العاشرة، ربيع الثاني ١٤١١ هـ/ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٠م.

٣ - آداب وخدمات السكن الداخلي في المدرسة عند المسلمين، العدد ٤٥، السنة ١١، ربيع الثاني ١٤١٢ هـ / تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩١م.

٤ - النقابات عند المسلمين، العدد ٤٧، السنة ١٢، شوال ١٤١٢ هـ - نيسان (أبريل) ١٩٩٢م.

٥ - المدرسة عند المسلمين، العدد ٤٨، السنة ١٢، محرم ١٤١٣ هـ - تموز (يوليو) ١٩٩٢م.

III - مجلة الأبحاث التربوية، كلّيّة التربية في الجامعة اللبنانية، بيروت.

١ - من تاريخ التعليم في لبنان في القرن التاسع عشر، النظام والإنضباط في الكُتّاب والمدرسة، العدد ١٩، ١٩٩٤م.

٢ - الإعلان والتربية، العدد ٢٠، ١٩٩٧م.

IV - مجلة المنهاج، تصدر عن مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، بيروت.

- الدروع الواقية التي يحفظ الله بها البيئة، ومسؤولية الإنسان المستخلف عليها، العدد ٣، السنة الأولى، خريف ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م.

رابعًا: الخبرات والوظائف:

- أوفدته وزارة التربية والشباب والرياضة إلى انجلترا في دورة في الإدارة التربوية.
- عمل في التعليم الرسمي والخاص وإدارتهما في لبنان وبعض البلدان العربية.
- أستاذ متفرغ في الجامعة اللبنانية - كلّيّة التربية.
- أستاذ في كلّيّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة وعضو المجلس العلمي ومدير العلاقات الثقافية ورئيس الوحدة التربية فيها.

- أستاذ في معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة في الجامعة اليسوعيّة.
- كبير الإستشاريين التربويين في شركة المستشار.
- عضو الأكاديمية المعلوماتية الدولية في موسكو.
- عضو المجلس الدولي للتعليم المفتوح والتعليم عن بعد في السويد.
- عضو لجنة تطوير المجلة التربوية في المركز التربوي للبحوث والإنماء.
- المشرف على سلسلة الكتاب التربوي الإسلاميّ.
- شارك في أنشطة تربوية في مركز اليونيسكو الإقليمي للتربية في البلاد العربية.
- اشرف وناقش رسائل وأطروحات الماجستير والدكتوراه.
- شارك في مؤتمرات تربوية، وفكرية إسلاميّة.
- منسق أعمال لقاء الكليات والمعاهد الجامعية الدينية في لبنان.
- رئيس الجمعية العلميّة للتنمية.

المحتوى

المسيحيّة والإسلام في الحوار والتعاون

سلسلة حواريّة أسّسها ويُشرِف عليها

عادل تيودور خوري

وتنشرها

المكتبة البولسيّة (جونيه – لبنان)

ظهر من هذه السلسلة

١. عادل تيودور خوري ومشير باسيل عون، **العدلُ في المسيحيّة والإسلام**، طبعة أولى ١٩٩٦، طبعة ثانية ١٩٩٨، ١٩٢ ص.

٢. بولس الخوري، **الإسلام والغرب – الإسلام والعلمانيّة**، طبعة أولى ١٩٩٦، طبعة ثانية ١٩٩٧، طبعة ثالثة ١٩٩٩، ١٦٠ ص.

٣. أندراوس بشتِه وعادل تيودور خوري، **سلامٌ للبشر. المسيحيّةُ والإسلامُ يَنظران إلى السّلام في أُسُسه ومَشاكله وأبعَاده المُقبِلة**، إعداد مشير باسيل عون ١٩٩٧، طبعة ثانية ١٩٩٨، ٣٩٢ ص.

٤. مشير باسيل عون، **بين المسيحيّة والإسلام. بحثٌ في المفاهيم الأساسيّة**، قدّم له عادل تيودور خوري، طبعة أولى ١٩٩٧، طبعة ثانية ١٩٩٩، ١٢٥ ص.

٥. أندراوس بشتِه وعادل تيودور خوري، **الإصغاءُ إلى كلام ا لله في المسيحيّة والإسلام**، إعداد مشير باسيل عون، طبعة أولى ١٩٩٧، طبعة ثانية ١٩٩٨، ٢٦٨ ص.

٦. عادل تيودور خوري، **الإسلامُ في عقيدته ونظامه**، تعريب عَلَم الياس عَلَم، طبعة أولى ١٩٩٧، طبعة ثانية ١٩٩٩، ٢٦٨ ص.

٧. مشير باسيل عون، **مَقالاتٌ لاهوتيّةٌ في سبيل الحوار**، قدّم لها كيرلُّس سليم بسترس وعقّب عليها عادل تيودور خوري، طبعة أولى ١٩٩٧، طبعة ثانية ١٩٩٩، ٢٢١ ص.

٨. عادل تيودور خوري ومشير باسيل عون، **الرّحمةُ الإلهيّة في المسيحيّة والإسلام**، جونيه، لبنان، ١٩٩٩، ٢٤٧ ص.

٩. بولس الخوري، **تراثٌ وحداثةٌ – قراءةٌ للفكر العربيّ الحاليّ**، طبعة أولى ١٩٩٧، طبعة ثانية ١٩٩٩، ٢٢٣ ص.

١٠. المطران سليم بسترس، **أفكار وآراء في الحوار المسيحيّ – الإسلاميّ والعيش المشترك**، الجزء الأوّل، ١٩٩٩، ٢٤٠ ص.
١١. المطران جورج خضر، **أفكار وآراء في الحوار المسيحيّ – الإسلاميّ والعيش المشترك**، الجزء الثاني، ٢٠٠٠، ٢٣٨ ص.
١٢. أندراوس بشْتِه وعادل خوري، **عالم واحد للجميع**، ٢٠٠٠، ٥٠٤ ص.
١٣. أندراوس بشْتِه وعادل تيودور خوري ، **الإسلام يُسائل المسيحيّة في الشؤون اللاهوتيّة والفلسفيّة** ، ٢٠٠٠ ، ٥٣٢ ص.
١٤. المطران كيرلّس سليم بسترس والأب الدكتور مشير باسيل عون ، **جوهر المسيحيّة ومفارقاتها – المسيحيّة على مشارف الألف الثالث** ، ٢٠٠١ ، ٢٣٤ ص .
١٥. الدكتور محمّد منير سعد الدين، **العيش المشترك الإسلاميّ المسيحيّ في ظل الدولة الإسلاميّة شهادة من التاريخ** ، ٢٠٠١، ١٨٤ ص.